مجلة إسلامية ثقافية

رسالة النجف

العدد الخامس

نيسان - أيار - حزيران : 2006م

جامعة النجف الأشرف للعلوم الدينية — لبنان

محتويات العدد

1	الافتتاحية	الشيخ مصطفى يحفوفي
2	مزارات دينية في لبنان	أحمد الموسوي
3	إقطاعات النبي (ص) وإعمار الأرض	السيد جعفر مرتضى
4	قرشيات: اتهام النبي(ص)بالقسوة	الشيخ علي كوراني
5	الإسلام في مواجهة التحدّيات	د. حسن جعفر نور الدين
6	أبو طالب: الحامي والكفيل	د. محمد كامل سليمان
7	حكم المال الذي يتعذر إيصاله لمالكه	الشيخ محمد تقي الفقيه (قده)
8	ابن الإنسان في الإنجيل	الشيخ حاتم إسماعيل
9	إمكانية رؤية الهلال تابعة للتقدير	م. محمد علي الصائغ
10	قبة سامراء	الشيخ محمد جواد الفقيه

الافتتاحية

الشيخ مصطفى يحفوفي

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى في محكم كتابه العزيز مخاطبًا النبيّ محمّدًا (صلى الله عليه وآله): **{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}**، وقال تبارك اسمه **{وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}**، وتتوالى الآيات ناطقة بشهادات ربّ العباد لهذا النبي الكريم (صلى الله عليه وآله) ولرسالته المباركة، وهي شهادات قد صدّقتها سيرته الشريفة، ولَمَس حقيقتها كلّ من خَبره عن قُرب، أو تتبّع تاريخ دعوته في الأزمان اللاحقة وكان من الأحرار المنصفين.

وليس في المقام متّسع لاستعراض جملة من أقوال أعلام الدين أو جهابذة الفكر في حقّه (صلى الله عليه وآله)، لذا نكتفي بسرد مثالين فقط ونُوكل الباقي إلى موضعه من المصادر والمطوّلات:

يقول **إمام المتّقين عليّ** (عليه السلام) واصفًا النبيّ الكريم (صلى الله عليه وآله): **(مستقره خير مستقر، ومَنبته أشرف منبت، في معادن الكرامة، ومماهد السلامة، قد صُرفت نحوه أفئدة الأبرار، وثُنيت إليه أزمّة الأبصار، دفن الله به الضغائن، وأطفأ به الثوائر، ألّف به إخوانًا، وفرّق به أقرانًا، أعزّ به الذلّة، وأذلّ به العزّة، كلامه بيان وصمته لسان)**.

ويقول الكاتب الإنكليزي الشهير "**برنارد شو**" - كما ورد في كتاب "محمد عند علماء الغرب"-: (إذا أراد العالم النجاة من شروره، فعليه بهذا الدين، إنه دين السلام والتعاون والعدالة، في ظلّ شريعةٍ متمدينة محكمة، لم تنسَ أمرًا من أمور الدنيا إلا رسمته ووزنته بميزان لا يخطئ أبدًا، وقد أَلّفتُ كتابًا في محمّد ولكنه صودر لخروجه عن تقاليد الإنكليز).

هذا هو واقع محمّد (صلى الله عليه وآله)، يُدركه كل من توخّى الحقّ ورام الإنصاف، ولكن يبقى هنالك نفوس خبيثة - وهي لا تقتصر على بيئة واحدة ولا تنتمي إلى دين بعينه - تعمى عن الحقيقة وتحقد على الحقّ، لا يردعها عن ذلك دين ولا ضمير، حتى بلغ بها الانحطاط الخلقي إلى مرتبة جعلها لا تبالي بالإساءة لنبي الرحمة (صلى الله عليه وآله) أو بالاعتداء على مقامات آل بيته الأطهار والذين قال فيهم تعالى: **{قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى}**.

فهنالك تنشر صحيفة دانماركية صورًا مسيئة للنبي الأكرم (صلى الله عليه وآله)، ويُقرّها على ذلك العديدون من أبناء الغرب ومؤسّساته، وهنا يعتدي بعض من يدّعي الإسلام على مقامات آل بيت النبوّة بالهدم، ويشوّه صورة النبي محمد (صلى الله عليه وآله)، ويزيّف دعوته بذبح الأبرياء وهتك الحرمات، وهو يجهر بالشعار المقدس "الله

أكبر"!

نعم، الله أكبر، ولكن الله سبحانه بريء من فعل هؤلاء ومن معتقدهم وإن انتموا إلى العنصر العربي وتسمّوا باسم الإسلام.

الله أكبر، وهو عدو لأولئك الغربيين الذين اختلفوا عن هذه الثلة موطنًا وفارقوها بحسب الظاهر معتقدًا، ولكنّهم شاركوها في التوجّه وعاضدوها في الغاية والمقصد، فهؤلاء جميعًا ينهلون من المشرب عينه، حيث يُمثّل الباطل دينًا واحدًا وإن افترقت طُرقه وتشعّبت دروبه.

اللهم إنّا نبرأ إليك منهم جميعًا، فأعذنا من حبائل الشيطان وخلّصنا من شروره.

ومن هنا وجدت (رسالة النجف) أن من واجبها تخصيص ملف هذا العدد لنبي الرحمة (صلى الله عليه وآله).

هذا وقد كانت المجلة في أعدادها السابقة قد قامت بنشر تحقيقات حول بعض الحوزات الدينية المعاصرة وتناولت جانبًا من شؤون عملها وطرق سيرها ومرامي سعيها حتى رأت أنها قد استوفت ما رمت إليه في تلك الجهة، وصار من المناسب أن تنعطف الآن إلى إلقاء الضوء في تحقيقاتها على بعض المقامات الدينية في لبنان، وذلك بُغية إحياء شعائر الله وتعظيمِ من تنتمي إليه هذه المقامات من أولياء الله الصالحين.

كما يشتمل هذا العدد على مقالات أخرى متنوّعة، فقهية وعقائدية وعلمية، نأمل أن تحصل منها الفائدة المبتغاة، راجين من الله سبحانه القبول.

مصطفى يحفوفي

مزارات دينية في لبنان

أحمد الموسوي

تحقيق العدد

إن للسياحة الدينية عموماً تأثيرها البالغ في إذكاء النفحة الروحية في نفوس المؤمنين وتقوية العلاقة بالله عز وجلّ من خلال ارتياد الأماكن التي لها ارتباط به تعالى، إما لانتسابها إليه مباشرة كالمساجد، أو لكونها مشتملة على الأجداث الطاهرة للأولياء من الأنبياء وأوصيائهم، خصوصًا النبي الأكرم محمدًا وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين، وكذا قبور العلماء والأولياء الصالحين.

وإن هذه المنطقة (الممتدة من جبل عامل إلى نواحي بعلبك) عُرفت قبل الإسلام بأنها موطن الكثير من الأنبياء - ولعلها المقصودة بقوله تعالى **{الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ}**([1])- وفي فترة ما بعد الإسلام صارت منبعًا للعلم والعلماء، لذا انتشرت في ربوعها قبور كثير من الأنبياء والعلماء وكثرت المقامات المنسوبة إليهم.

وقد أحيطت هذه المقامات والقبور بالرعاية والاهتمام والتشييد والتجديد من قبل المؤمنين في كل جيل، وما ذلك إلا لما عرفوه عن أصحابها أو لما لمسوه من كرامات وألطاف واستجابة دعاء ببركة الاستشفاع بهم، حتى إنه يلاحظ وفرة بذل المال من النذور والأوقاف والصدقات في هذا السبيل لبعضها، ولكن مع ذلك فربّ قبرٍ لنبي أو ولي قد غلب عليه الإهمال أو غمره النسيان بسبب الظروف التي مرّت بها المنطقة من الحروب ونحوها من الأوضاع الأمنية التي تحجب الناس عن الوصول إلى هذه الأماكن لسنوات ربما، مما يتسبّب بإضاعة حقيقتها ومجهولية قيمتها. فربما يُهمل قبر نبيّ كما ربما يُنسب قبر عبد صالح إلى أنه من قبور الأنبياء كما ستأتي الإشارة لذلك.

و(رسالة النجف) كانت في الأعداد السابقة قد سلطت الأضواء على الحوزات الدينية المعاصرة بمقدار ما يوضح عملها وسيرها وهدفها، وتحاول المجلة الآن في هذا العدد وفيما يليه إن شاء الله أن تلفت إلى ما تحويه بلادنا من المقامات الدينية التاريخية وتفتح باب البحث والتحقيق عن حال أصحابها وسيرتهم ومدى صحة انتسابها إليهم لإعطاء كل حقّه وتشجيع وترشيد الاستفادة من هذه الآثار العظيمة، وكانت الخطوة الأولى هي إلقاء نظرة إحصائية وإن لم تكن شاملة دقيقة، وتعريفات وإن لم تكن وافية، لما أمكن من هذه المقامات، فكانت البداية أن توجهنا إلى منطقة بعلبك - الهرمل.

بعلبك الهرمل، أرض أنبياء.. وفقراء

مقام في كل قرية وأضرحة تتبادل الأنوار



تزور منطقة بعلبك - الهرمل من لبنان، فلا تحتاج إلى كثير جهد لتلاحظ أن الفقر - نتيجة سياسة مديدة من الحرمان والإهمال وحتى الاضطهاد - هو من العلامات الفارقة التي تتميّز بها هذه المنطقة، وأيضًا لتلاحظ عمق الإيمان المتجذّر في نفوس أبنائها، دليلاً على مدى تعلّقهم وارتباطهم الوثيق بالديانات السماوية على مرّ العصور، حتى إن بعض كتب التاريخ تذكر أن أول أرض استقر فيها آدم بعد نزوله من الجنّة كانت أرض بعلبك، وأن بعلبك أول مدينة تُبنى على هذه الأرض إذ أن (قابيل) بعد أن قتل أخاه (هابيل) بوسوسة من الشيطان أصابه الخوف والهلع، فبنى لنفسه - طلبًا للأمان - هيكلاً في بعلبك سكنه واتخذه حصنًا، ومن ثمّ رزق الله آدم ابنًا ثالثًا سمّاه (شيث)، وله ضريح يُنسب إليه، قائم حتى الآن في بلدة "النبي شيث" التي سمّيت باسمه.

وليس مقام النبي شيث في منطقة بعلبك - الهرمل سوى أحد الشواهد البارزة من الآثار الحية التي تؤكّد ما لهذه المنطقة من ارتباط وثيق بالديانات منذ الزمن السحيق، إذ لا تخلو قرية أو بلدة من مقام أو آثار مقام لنبيّ من الأنبياء، أو وليّ من الأولياء الصالحين، وبعض هؤلاء بلغ تعظيم الناس لهم حدًّا جعلهم يرفعونهم إلى مرتبة الأنبياء مبالغة في تقديرهم وتكريمهم.



إلا أن قلّة الدراسات التوثيقية العلمية والميدانية والاجتماعية حول هذا الموضوع أفسحت المجال واسعًا أمام التكهّنات والاستنتاجات وحتى أمام كثير من الشائعات والتقديرات الخاطئة للعامة من الناس، خاصة في تعريفهم لبعض أصحاب المقامات أو المزارات بأنهم من الأنبياء رغم أن وفاتهم حصلت منذ بضع مئات من السنين، ومردّ ذلك إلى قلّة المعرفة والتدقيق من جهة وإلى مشابهة أسماء بعض الأولياء والمتصوفين والمتعبّدين بأسماء أنبياء وردت أسماؤهم في القرآن الكريم من جهة ثانية، كإطلاق اسم النبي سليمان على مقام في بلدة "يونين"، وهو لسليمان بن مهدي اليونيني وكان أحد المتصوّفة وله زاوية قرب نبعة ماء حسب ما ورد في كتاب "مرآة الزمان" وهو المكان نفسه حيث المقام الآن، وقد عاش هذا المتصوّف في القرن السابع الهجري، وقد اتخذ هذه الزاوية بعد عمّه وكان أيضًا من المتصوفين وقد دفن الاثنان فيها، واختلط الأمر على الناس مع الزمن فاعتبر هذا المقام مقامًا للنبي سليمان الوارد ذكره في القرآن.

والأمر عينه يصدق بالنسبة لمقام المتصوّف عيسى اليونيني الذي يطلق عليه الناس اسم النبي عيسى ظنًا منهم أنه السيد المسيح (عليه السلام).



وربما يكون الحال كذلك بالنسبة لكثير من المقامات والأضرحة المنتشرة في المنطقة، والتي سوف نتعرّض لها في هذا العدد بصورة إجمالية، على أن نحاول القيام في أعداد لاحقة بمطالعةٍ ميدانية أكثر تفصيلاً لبعض هذه المقامات.

وفي مدينة بعلبك هناك مقام يُنسب للنبي نعام وله ضريح وسط بناء قديم أكثرُ زوّاره من أهالي المدينة، ويروي العديد منهم أنهم رأوا الأنوار تنزل عليه في بعض الليالي، والنبي نعام هو كما يُعتقد ابن النبي نوح (عليه السلام) الذي له بدوره مزار في الكرك على بعد أربعين كيلومترًا من بعلبك.



وفي بعلبك أيضًا ضريح يُنسب للنبي إلياس، على مدخل المدينة الجنوبي لجهة الشرق، وهو مزار للمسلمين والمسيحيين على حدّ سواء، ويروي أحد زوّار هذا المقام - حسين رعد - أن ذاكرة أبناء المنطقة من جيل إلى جيل تحفظ أن النبي إلياس المدفون هنا هو النبي إلياس نفسه الذي ورد ذكره في القرآن الكريم وأرسله الله لهداية الناس بعد أن ضلّوا، وهو الذي قال لهم كما ورد في القرآن: **{أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ}**([2])، وقد يكون هناك ارتباط بين (بعل) هذا وبين اسم بعلبك، مما يؤيّد كونه هو المذكور في القرآن الكريم، وأن تلك المنطقة كانت هي محطّ رِحاله ومسرح دعوته لهداية الناس.

ومن المقامات أيضًا في بعلبك مقام **اليسع** ويُعتقد أنه النبي ذو الكفل الوارد ذكره في القرآن الكريم، وله مقام في "الجُرد" غير مُعتنى به.

وفي محلّة البساتين قرب "دُوْرِس" هناك ضريح لأحد الأولياء الصالحين وهو **عز الدين أبو حمزة** المتوفى سنة 667 هجرية.



أما في بلدات وقرى بعلبك - الهرمل: فهناك مقام للنبي **أسمر** في بلدة (بُدْنايل) يزوره أبناؤها، وفي بلدة يونين مقامان يظنّ الناس أنهما للنبي **سليمان** والنبي **عيسى** (عليهما السلام)ن وقد أشرنا إليهما آنفًا.

وفي منطقة العين مقام يُنسب للنبي **قاسم**، وفي بلدة "حام" على الحدود مع سوريا مقام منسوب للنبي **حام** ابن النبي نوح، وفي "رسم الحدث" مقام يُنسب للنبي **يوشع** وهو وصي النبي موسى (عليه السلام) وقائد جيشه، وبين بلدتي "ريحا" و"شعث" مقام منسوب للنبي **إسماعيل**.

أما في بلدة الخريبة وجوارها فهناك روايات كثيرة عن أنبياء سكنوا المنطقة، منهم: **عطريف**، **وسريج**، **وصخير**، وفي بلدة "مَعْرَبون" مقام للنبي **يوسف**، وفي سباط مقام للنبي **سباط**.



والى الشرق من مدينة بعلبك أيضًا هنالك مقام قديم يُنسب للنبي **صالح** في بلدة بريتال، وهو على كتف التلال الشرقية للبلدة يزوره الأهالي للتبرّك، ويروي أحد زائريه - علي مظلوم - أنه رأى مثلما رأى العشرات غيره الأنوار تنزل على المقام، ما يرجّح له أنه ضريح لأحد الأنبياء ولعله النبي صالح الوارد ذكره في القرآن الكريم والذي أرسله الله لبني ثمود.

وعلى الطريق بين "بريتال" وبلدة "حورتعلا" ضريح يزوره أهل المحلة ويعتقدون أنه لأحد الأنبياء واسمه **عبد الله**، ويقوم برعاية هذا المقام آل المصري، ويصلّي الأهالي فيه يوم الجمعة، بينما تقيم النساء فيه مجالس العزاء في أيام عاشوراء، وعن تاريخ إنشائه يقول عباس المصري وهو أحد أبناء المنطقة: ((منذ وعينا ونحن نعرف عن آبائنا وأجدادنا بوجود ضريح النبي عبد الله في هذا المكان، ونحن نزوره للتبرّك والصلاة)).

أما مقام النبي إسماعيل الذي تقدم ذكره، فيروي حسين مظلوم ما يتناقله الآباء عن الأجداد من أنهم يعتقدون أن النبي إسماعيل ابن النبي إبراهيم دفن هناك، ولكن بسبب مكانه البعيد نادراً ما يقوم أحد بزيارته.



وفي بلدة الخضر مقام العبد الصالح **الخضر**، وفي الروايات التي يتناقلها أبناء البلدة أن الخضر ليس مدفونًا في هذا المقام ولكنه مرّ في هذا المكان وأقام فيه بضع سنوات، فأخذ الناس يقصدونه للتبرك ومن ثم أصبح مزارًا للمسلمين من لبنان ومن بلدان إسلامية أخرى خاصة السودان وإيران والهند. وعن ذلك يقول المشرف عليه علي سليمان: ((إن الخضر الحي أقام هنا واتخذ هذا المكان مصلى له))([3])، ويؤكّد أنه رأى بأمّ عينه مرتين الأنوار تنزل على المقام، ومثله تؤكّد إحدى السيدات الزائرات - أم علي عودة - أنها رأت الكواكب والأنوار تهبط على هذا المقام، وأنها شاهدت في إحدى المرات ثلاثة كواكب نورانية اثنان منها سقطا عليه، بينما بقي الثالث فوقهما في السماء.



وإذا كانت تلك المقامات تمثّل جانبًا مما تزخر به المنطقة من أماكن دينية يُعتقد أن لها صلة أو علاقة بأنبياء عاشوا أو مرّوا في المنطقة، فإن هناك أيضًا المئات من الأضرحة والمقامات لأولياء وصالحين منتشرة في العديد من القرى والبلدات، ومنها مقام العبد الصالح **محمد العوسج** في تمنين التحتا، ويروي أحد أبناء المنطقة - حسين نصار - أن أباه رأى هذا المقام يتبادل الأنوار مع مقام النبي شيث ومقام النبي أيلا في بلدة النبي أيلا قرب أبلح.

ومن المقامات المعروفة أيضًا مقام **أحد الضايع** في حدث بعلبك، ومقام السيدة **البطحاء** في سرعين الفوقا، ومقام الشيخ **محمد البابا** في نحلة، ومقام **لحفصة** بنت الصحابي معاذ بن جبل في حيّ الشراونة في بعلبك، ومقام آخر للسيد **علوان** وهو من آل مرتضى اشتهر بأنه من أصحاب الكرامات.



وختامًا فإن هذه الجولة السريعة على هذه المجموعة من المقامات والتي لم تستوعب كل ما في هذه المنطقة المذكورة تُظهر مدى الحاجة إلى البحث والتحقيق والتمحيص لمعرفة القيمة التاريخية والدينية لما يمكن الوصول إليه منها، وبالتالي لإعطاء كلّ منها ما يستحقّه من الاهتمام به والترويج له، ولفتِ أنظار المؤمنين إليه حتى لا يفوتهم الانتفاع منه.

ونحن في رسالة النجف نسأل الله تعالى أن يكون لنا دور في ذلك في جملة من الأعداد التالية.



---

[1] - سورة الإسراء من الآية 1.

[2] - سورة الصافات الآية 125.

[3] - هنالك اختلاف في وجهات النظر في كون الخضر (عليه السلام) نبيًا أو وليًا من أولياء الله.

إقطاعات النبي (ص) وإعمار الأرض

السيد جعفر مرتضى

السيد جعفر مرتضى *

كثيرًا ما نقرأ في التاريخ، أن النبي (صلى الله عليه وآله) قد خصّ بعض الناس ببعض الأراضي، وكان يكتب لهم بها كتابًا، ويضع عليهم شروطًا.. فربما أثار هذا شبهة لدى بعض من قصّر في البحث عن ظروف وملابسات هذا الأمر، وشبهتهم هي التالية:

السؤال: ما هو المبرر لإعطاء شخص واحد هذا العطاء الكبير، وتخصيصه بهذه المساحات الشاسعة، مع أنه كان من الممكن توزيع هذه المساحات على مجموعة من الأفراد الذين يعانون من الحاجة الملحّة، وليكن منهم أصحاب الصفّة المعروفون بالفقر، وكان (صلى الله عليه وآله) ينفق عليهم بحسب ما يتيسر له.

وإذا كانت هذه الأراضي قد أصبحت تحت اختيار السلطة، فذلك لا يبرر التصرف فيها، لتكريس يسيء إلى سمعة الدين، ويسقط منطق العدل والدين فيه، من خلال إعطاء تلك الأراضي لفئة صغيرة قد تكون في غنى عنها، بل يجب أن يستفيد منها أكبر عدد من الناس، وخصوصًا الفقراء منهم.

إجابة مرفوضة:

وقد حاول البعض أن يجيب: بأن من الجائز أن تكون بعض هذه المناطق الممنوحة لم تكن منحًا جديدًا، وإنما كان إعطاؤها لهم مجرد تأكيد لملكية سابقة، وهذا الإقطاع معناه أن النبي (صلى الله عليه وآله) قد أقرّها في يد صاحبها، فقد كان النبي (صلى الله عليه وآله) يضمِّن كتب الأمان التي يصدرها للأفراد والجماعات ما يملكون من أراض. وقد يرد في بعض الحالات اسم زعيم القبيلة أو الوفد وحده على رأس الوثيقة.

ولكن ليس معنى ذلك أن كل ما يرد في الوثيقة يخصّ ذلك الزعيم شخصيًا، بل إن سائر أفراد القبيلة تكون لهم عين الحقوق المعطاة في الوثيقة المعنية، وما الزعيم - الذي ورد اسمه - إلا الممثل لمصالحهم([1]).

غير أننا نقول: إن هذه الإجابة غير دقيقة، ولا تناسب الكثير من النصوص الواردة في كتب الإقطاعات، وإذا كان أولئك الناس قد أسلموا طواعية، فإن الشرع يحكم بأن من أسلم على أرض فهي له. فأيّ داع للتصريح بمالكيتهم لأراضيهم؟!

على أن هذا لو صحّ لاقتضى أن تشمل الكتابة بذلك جميع الناس، وأن لا تختص ببعض الناس دون بعض.

الجواب الأمثل:

والإجابة الصحيحة على هذا السؤال تحتاج إلى الحديث في جهات عدّة، ولو بصورة موجزة وذلك كما يلي:

الفقر الموت الأكبر:

إن الإسلام لا يريد أن يرى الفقر يعشعش في داخل المجتمع الإنساني، لأن الفقر ليس فضيلة، كما أن الغنى ليس عيبًا أو نقصًا، بل الإسلام يريد أن يرى المجتمع طموحًا وفاعلاً، وغنيًا وقويًا.. ومتكافلاً ومتعاونًا على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

فإن كان ثمّة من فقير، فلا بد أن يكون سبب فقره ظروفًا قاهرة، أو إتكالية وكسلاً مرفوضًا وممقوتًا، أو سوء تصرف، أو غير ذلك.

ولذلك جاءت تشريعات الإسلام حاسمة في معالجة مسألة الفقر باقتلاعه من جذوره، وقد روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام): (الفقر الموت الأكبر)([2]).

وعن الإمام الصادق (عليه السلام): (كاد الفقر أن يكون كفرًا، وكاد الحسد أن يغلب القدر)([3]).

البداوة مذمومة:

هذا.. وقد قال تعالى على لسان يوسف (عليه السلام) مخاطبًا أباه: {..**وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ..**}([4]).

ما يعني أن الخروج من حياة البدو كان نعمة عظيمة توازي خروجه من السجن.

وقال تعالى أيضًا:

{يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً}([5]).

فهو تعالى يذمّ هؤلاء الناس على أن الأمر قد بلغ بهم حدًا فقدوا معه الموازين، واختلّت فيه المعايير لديهم، بسبب حبّهم للدنيا وزخارفها، فكانوا يهربون من الجهاد الذي هو من أشرف الأعمال وأعظمها، لما فيه من حماية لحياة المسلمين، وحفظٍ لعزّتهم ودولتهم، والدفاع عن منجزاتهم الحضارية، ويفضّلون عليه أحط الخيارات وأرخصها وأتفهها، ألا وهو أن يكونوا بادين في الأعراب، ولا يكونوا في ساحات الشرف والجهاد والكرامة.

آثار البداوة على الإنسان العربي:

وبالرجوع إلى التاريخ نلاحظ: أن الإنسان العربي كان آنئذٍ يعيش البداوة بأجلى مظاهرها، وربما لم تكن له علاقة بالأرض، ولا يراوده حنين إليها إلا بقدر ما تحمله له من ذكريات، مُرّة تارة، وحلوة أخرى، ولا شيء أكثر من ذلك..

وكان همّه مصروفًا إلى تحصيل لقمة عيشه بطرق سهلة، مثل رعي الإبل والمواشي، وإلا فالسلّب والنهب والغارة، ولو بقيمة إتلاف النفوس، وإزهاق الأرواح..

فكان من نتائج ذلك: أن قويت عصبيّة الإنسان العربي للعشيرة، واشتدت نفرته وخوفه من كل من عداها.. فكان أن حُرم من تعاون بني جنسه معه على حلّ مشكلات الحياة، ومن فرص إرساء أسس لحضارة ذات قيمة..

وبذلك يكون العرب قد حرموا أنفسهم أيضًا من علوم كثيرة كان من الممكن أن تساعدهم على اقتحام مجالات حياتية مهمة ورائعة، فلم يمارسوا شيئًا من الصنائع، ولا استخرجوا من كنوز الأرض ومعادنها وخيراتها ما يفتح أمامهم أبوابًا من المعرفة تفيدهم في تنويع الإستفادة منها. ولا مارسوا حِرَفًا تفيدهم في تيسير سبل العيش لهم، كما أنهم لم يجدوا أنفسهم ملزمين ولو بالإلمام بشيء من العلوم الإنسانية، على كثرتها وتنوعها واختلافها.

عناصر ضرورية لبناء الدولة والحضارة:

وغنيّ عن القول: إنه إذا أريد بناء دولة قوية ومجتمع إنساني فاعل ومتماسك، وقادر على إنشاء الحضارات وتحمّل المسؤوليات التاريخية فلا بد من توفر العناصر الضرورية لذلك، والتي بها يتوفّر الأمل والطموح، والشعور بالأمن والسلام، ثم التفرغ للتأمل والتفكير، والتعرّف على المشكلات وقهر الموانع وتجاوز العقبات، والتخطيط، واستنباط وسائل التغلّب عليها بالتسلح بالعلم والمعرفة، ثم السعي للحصول على القدرات اللازمة لذلك كلّه.

وبديهي: أن يكون ذلك كلّه مرهونًا بالإستقرار المؤدّي لإعمار الأرض، من خلال الإرتباط بها، وبذل الجهد في استخراج خيراتها، ومعادنها وكل ما فيها، ووضع ثمرات هذا الجهد في التداول، والإهتمام بتطوير الحياة به ومن خلاله، ولا يكون ذلك كلّه ممكنًا إلا بالتعاون والتعاضد، والعمل على إنتاج رؤية سليمة تؤدّي إلى تطويع وإخضاع قوانين الطبيعة لإرادة الإنسان لتكون في خدمته..

ولا مجال للنجاح في ذلك كلّه إلا في ظل الأطروحة الصحيحة، التي تحدّد الأهداف القصوى، وتحفظ مسيرة الوصول إليها وسلامتها. وتهيمن على المسار والمسير، وتمنح الثقة بالنجاح والفلاح، من خلال تضافر الجهود واستنفار العقول.

يتبع =

---

[1]- نشأة الدولة الإسلامية ص255 ـ 256.

[2]- سفينة البحار ج7 ص133.

[3]- سفينة البحار ج7 ص131 و 132 والبحار ج70 ص246.

[4]- الآية 100 من سورة يوسف.

[5]- الآية 20 من سورة الأحزاب.

تتمة مقال = إقطاعات النبي (ص)

سياسة الإسلام للتخلص من البداوة:

وقد كان لا بدّ من الخروج من حياة البداوة، والعمل على بناء مجتمع مدني قوي وفاعل، وقد عمل الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) على تحقيق هذا الغرض النبيل، من خلال إجراءات عديدة ومتنوعة، فأوجب على الإنسان نفقات، وحمّله مسؤوليات مالية، ثم حثّه على العمل واعتبره كالجهاد في سبيل الله، وحثّ على الهجرة من البدو، وعلى السعيّ في سبيل بناء حياة كريمة، وأوجب على كل فردٍ - وجوبيًا كفائيًا - تحصيل ما يحتاج الناس إليه من العلوم.. وحثّ على تعلّم الحرف والصناعات وشجّع على التجارة والزراعة وإثارة الأرض وعمارتها، ثم إنه من جهة أخرى ذم الكسل والتواكل، ومنع من أكل المال بالباطل، ومن الظلم والحيف، واغتصاب الأموال، والتعدّي على أراضي الغير، ولو بمقدار شبر واحد، ومنع من الربا والقمار، والإحتكار.. و.. و.. ثم كانت سياسة إقطاع الأراضي كما سنرى..

ومما يشير إلى اهتمام الإسلام بالحِرَف، وبإحياء الأرض، وبالإعمار وغير ذلك ما رُوي من أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان إذا نظر إلى الرجل فأعجبه قال: هل له حرفة؟! فإن قالوا: لا. قال: سقط من عيني([1])..

وفي مجال الزراعة رُوي: أنه (صلى الله عليه وآله) أوصى عليًا (عليه السلام) عند وفاته بقوله: (يا علي، لا يُظلم الفلاحون بحضرتك)([2]).

وقال (صلى الله عليه وآله): (إن الله أهبط آدم إلى الأرض، وأمره أن يحرث بيده ليأكل من كدّه)([3]).

وقد حثّ أمير المؤمنين (عليه السلام) في وصيته للإمام الحسن (عليه السلام) على أن لا يقلع شجرة حتى يغرس عوضًا عنها وَدِية([4])، حتى تشكّل أرضها غراسًا([5]). أي لا تمتاز الأرض عن الشجر.

وعنه (عليه السلام): (من وجد ماءً وترابًا ثم افتقر فأبعده الله)([6]).

وقال (عليه السلام) في عهده للأشتر: (ليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج، لأن ذلك لا يُدرك إلا بالعمارة. ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد، ولم يستقم أمره إلا قليلاً)([7]).

وقال الواسطي: سألت جعفر بن محمد (عليه السلام) عن الفلاحين، فقال: (هم الزارعون كنوز الله. وما في الأعمال شيء أحب إلى الله من الزراعة. وما بعث الله نبيًا إلا زارعًا إلا إدريس (عليه السلام)، فإنه كان خياطًا)([8]).

وقد علَّم الله تعالى نبيه داوود (عليه السلام) صناعة الدروع، وألان له الحديد.. كما صرّح به القرآن الكريم.

لماذا إقطاع الأراضي؟!:

ومن المفردات المفيدة جدًا في هذا المجال هو: إقطاع الأراضي، فإن إقطاع الأراضي لشخصٍ ما، معناه: أن تصبح تلك الأرض تحت اختياره، ومنع الآخرين من مزاحمته أو الحدّ من فاعليته فيها، فيستفيد من هذه الفرصة التي مُنحت له ليعمل على إحياء تلك الأرض إما بالزراعة، أو بالإستفادة منها في أيّ مجال إنتاجي: تجاري، أو صناعي، أو تعليمي، أو تربوي، أو غيره.. واستخراج خيراتها، ومعادنها، وتطويرها.. ورفد السوق بها، ووضعها في دائرة التداول، لينعش الحالة الإقتصادية، من حيث إنه يضخّ في عروق اقتصاد المجتمع دمًا جديدًا، ويزيده قوة وصلابة، ويحفزه لمواصلة نموّه، ويمكّن من ثَمّ من تهيئة الظروف والقدرات للتحرك نحو مراحل ومستويات حياتية أعلى وأرقى، وأرحب وأوسع، لها طبيعتها ووسائلها، وحاجاتها، ولا بدّ من مواجهة مسؤولياتها، وحلّ مشاكلها.

ضرورة التعاون:

إن من الطبيعي أن يستفيد الشخص الذي وُضعت الأرض بتصرّفه، من طاقات الآخرين لإنجاز مهمة الإحياء، وإيصالها إلى أهدافها، لكي تؤتي ثمارها في ظلّ نظام قائم على العدل، يضع الأمور في نصابها، ويعطي كل ذي حق حقه..

وهذا يقتضي وضع ضوابط ومعايير ترتكز إلى منظومة من المُثل والقيم تحدّد طبيعة العلاقة، وتحكم طريقة التعامل، وربما يحتاج ذلك إلى رصد ميزات نفسية وأخلاقية معينة تفرضها صحة وسلامة هذا التعامل الممتدّ عبر الأعصار والأزمان.

وبذلك يصبح إقطاع الأراضي الموات بهدف إحيائها، وإنعاش الحالة الإقتصادية، وإيجاد فرص عمل لفئات من الناس، ثم دفع المجتمع ليتعلق بأرضه، ويستخرج خيراتها، وليعيش حالة السلام والأمن، يصبح ضرورة لا بدّ منها، ولا غنى عنها لبناء المجتمع الإنساني وبناء الدولة، ثم إرساء قواعد الحضارة القائمة على أساس صحيح ومتين من القيم الإنسانية والإلهية، عندها يصبح من الممكن الإنطلاق بالمجتمع الإنساني إلى آفاق السلام والسلامة، لينعم بالعيش الرغيد والسعيد..

إقطاع الأرض للمحتاجين:

ثم إن هذه الإقطاعات التي حصلت في زمن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قد كانت في الأكثر لأناس يحتاجون إليها، وليسوا من الأغنياء، إلا في موارد نادرة جدًا، أُريد بها تأليف بعض الناس، وكفّ أذاهم، مع عدم الإضرار أو الإجحاف في حقّ أي كان. ويظهر هذا الأمر من مراجعة قائمة الذين أقطعهم الرسول (صلى الله عليه وآله)، ممن

وصلت أسماؤهم إلينا..

ومما يشير إلى أن إقطاع هؤلاء كان من موجبات القوة، ولَمِّ الشّعث، وإنعاش الإقتصاد بصورة أو بأخرى، ومن دون حيف وإجحاف أننا لم نجد أحدًا اشتكى، أو تساءل عن أي أمر له علاقة بهذا الموضوع، أو أبدى أية ملاحظة حول الأشخاص الذين أقطعهم (صلى الله عليه وآله). مع أن بعض الأنصار اعترضوا على إعطاء غنائم حُنين للمؤلّفة قلوبهم، حتى أوضح لهم النبي (صلى الله عليه وآله) ما أزال موجبات الإعتراض من نفوسهم..

الإقطاع للقادرين والمبادرين:

هذا.. وقد يكون الفقير أو الغني أحيانًا لا يريد أو غير قادر على الإحياء، فيصبح إعطاؤه الأرض لكي يحييها بلا مبرر، ولا يقدم عليه رسول الله (صلى الله عليه وآله)، لأن المهمّ هو: إحياء الأرض بيد من يقدر على إحيائها، وِفقًا لأحكام الشرع..

وليس المقصود: مجرد تمليك الأراضي للناس، وينتهي الأمر عند هذا..

وقد ذمّ الإسلام الكسالى، والإتكاليين، الذين يريدون أن يعيشوا كَلاً على الناس، وأعلن عن شديد مقته لهم، ولم يرضَ لهم بمدّ يد العون، وعليه فلا حقّ لهم لكي تصح المطالبة به، لأنهم هم الذين جنوا على أنفسهم..

يتبع =

---

[1]- البحار ج100 ص9 وفي هامشه عن جامع الأخبار (ط الحيدرية ـ النجف الأشرف) ص139.

[2]- راجع: الكافي ج5 ص284؛ وتهذيب الأحكام ج7 ص154؛ والوسائل (آل البيت) ج19 ص63؛ و(الإسلامية) ج13 ص216؛ وجامع أحاديث الشيعة ج18 ص460؛ ومكاتيب الرسول ج3 ص540؛ والخراجيات للمحقق الكركي ص90؛ ورسائل الكركي ج1 ص284.

[3]- راجع: الوسائل (ط آل البيت) ج6 ص382 وج19 ص36؛ و(ط الإسلامية) ج4 ص981 وج13 ص196؛ ومكاتيب الرسول ج3 ص540؛ ومستدرك الوسائل ج4 ص475 وج13 ص24 و 462؛ والبحار ج11 ص211 و 212؛ وجامع أحاديث الشيعة ج5 ص235 وج17 ص130 وج18 ص434 و 435؛ وتفسير العياشي ج1 ص40؛ وقصص الأنبياء للراوندي ص53؛ ومنازل الآخرة للقمي ص41.

[4] - الودي: على فعيل، صغار الفسيل، واحدة ودية.

[5]- راجع: نهج البلاغة (بشرح عبده) ج3 ص22؛ ومستدرك الوسائل ج14 ص57؛ والبحار ج42 ص255 وج100 ص184؛ وجامع أحاديث الشيعة ج19 ص103؛ وشرح النهج للمعتزلي ج15 ص147؛ والنهاية لابن الأثير ج2 ص496؛ ولسان العرب ج11 ص357.

[6]- قرب الإسناد ص115؛ وجامع أحاديث الشيعة ج17 ص134؛ وموسوعة الإمام علي بن أبي طالب «عليه السلام» في الكتاب؛ والسنة والتاريخ للريشهري ج4 ص28 و 172؛ والوسائل (ط آل البيت) ج17 ص41؛ و(ط الإسلامية) ج12 ص24 والبحار ج100 ص65.

[7]- راجع: نهج البلاغة، وقد ذكرنا شطراً من مصادر هذا العهد في كتابنا دراسات وبحوث في التاريخ والإسلام.

[8]- البحار ج100 ص171؛ والوسائل (ط الإسلامية) ج17 ص42؛ و(ط آل البيت) ج12 ص25 وراجع: مستدرك الوسائل ج13 ص459 و(ط آل البيت) ص26 و 461.

.

تتمة مقال = إقطاعات النبي (ص)

صفة الأرض المعطاة:

إن الأراضي التي كان (صلى الله عليه وآله) يُقطعها على أقسام هي:

أ - أراضِ موات هي لله ولرسوله، وقد جعلها الله ورسوله لمن أحياها وفقًا لقوله (صلى الله عليه وآله): (من غرس شجرًا، أو حفر واديًا بديًا، لم يسبقه إليه أحد، أو أحيا أرضًا ميتة فهي له، قضاء من الله ورسوله)([1]).

وثمة أحاديث أخرى أيضًا تشير إلى ذلك، فلتراجع في مظانها([2]).

ب - الأنفال: وهي الزيادات، وتكون في الأموال، مثل الديار الخالية، والقرى البائدة، وتركة من لا وارث له، وتكون في الأرضين أيضًا. وهي على ما ذكره الفقهاء، ودلّت عليه الأحاديث، تشمل الأرض المحياة التي تُملك من الكفار من غير قتال، سواء انجلى عنها أهلها، (أو سلّموها للمسلمين طوعًا).

وتشمل الأرض الموات عرفًا، سواء أكانت معمورة، ثم انجلى عنها أهلها، أو لم يجرِ عليها مُلك، كالمغاور، وسيف البحار، ورؤوس الجبال، وبطون الأودية([3])..

ج - الفيء: هو ما يُرجع أو يُرد من أموال الكفار وأراضيهم إلى مالكه الأصلي من دون إيجاف خيل ولا ركاب.

والفيء لله ولرسوله، وليس لأحد فيه حق. وللرسول أن يملِّك منه ما شاء لمن شاء..

وهناك كلام في تداخل هذين القسمين الأخيرين، فإن ما سلّموه للمسلمين طوعًا هو الفيء، وقد تقدم: أنه قسم من الأنفال أيضًا. ولسنا بصدد البحث والمناقشة في ذلك.

إن الإقطاعات التي كانت من رسول الله (صلى الله عليه وآله) إنما كانت من هذه الأقسام المتقدمة، ولم يكن ليُقطع أحدًا من مال حاضر النفع ظاهر العين، لأن هذا لا مجال لإقطاعه، إلا على سبيل التأليف على الإسلام، وهذا إنما كان بالنسبة لأفراد قليلين جدًا أكثرهم من أهل مكة، وكان الهدف إنهاء شغبهم على الدين وأهله، وإبعاد أذاهم، ولم تكن الإقطاعات في أكثرها تدخل في هذا السياق..

إعتراضات وإجابات:

وقد يسجل على هذه الإجابة إعتراضات:

الأول: قد ورد: أن النبي (صلى الله عليه وآله) حين ورد المدينة أقطع الناس الدور.

وهذا معناه: أنه قد أقطع من مال ظاهر العين، حاضر النفع.

والجواب: أنه إنما أقطعهم مساحات من الأرض، ليبنوا عليها دورهم([4])، وذلك بعد أن وهبت الأنصار كل فضل كان في خططها([5]).

وقد ذكر ياقوت الحموي: أنه (صلى الله عليه وآله) كان يقطع أصحابه هذه القطائع فما كان في عفا الأرض فإنه أقطعهم إياه، وما كان في الخطط المسكونة العامرة فإن الأنصار وهبوه له، فكان يقطع من ذلك([6]).

وقال الحلبي الشافعي: (خط للمهاجرين في كل أرض ليست لأحد، وفيما وهبته الأنصار من خططها)([7]).

الثاني: قد يعترض على ذلك أيضًا بما ورد من أنه (صلى الله عليه وآله) أقطع أرضًا ذات نخل وشجر([8]).

وهذا معناه: أنه كان يقطع الناس من مال حاضر النفع ظاهر العين.

والجواب:

أولاً: قال ياقوت: أقطع الزبير بن العوام بقيعًا **واسعًا**([9]).

والبقيع: هو الموضع الذي فيه أروم الشجر، يعني أصوله من ضروب شتى([10]). **وهذا** يشير إلى أنها كانت أرضًا متروكة، حتى لم يبق من النخيل إلا أصوله.

ثانيًا: عن ابن سيرين قال: أقطع رسول الله رجلاً من الأنصار يقال له سليط، فانطلق إلى رسول الله فقال: يا رسول الله، إن هذه الأرض التي أقطعتنيها شغلتني عنك، فاقبلها مني، فلا حاجة لي في شيء يشغلني عنك.

فقبلها النبي (صلى الله عليه وآله) منه، فقال الزبير: يا رسول الله، اقطعنيها.

قال: فأقطعها أياه([11])، **فهو** قد اشتغل في إحيائها، واهتم بها حتى أشغلته عنه، ثم انصرف عنها، واستقال منها، فأعطاها (صلى الله عليه وآله) لغيره.

ثالثًا: إن ذلك يفسر لنا قولهم: إنه (صلى الله عليه وآله) قد أعطى بني عقيل العقيق ما أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وسمعوا وأطاعوا([12]).

والعقيق: موضع فيه قرى ونخل كثير([13]).

فإن من الجائز أن يكون المقصود بالنخل هو: أصولها، أو أنها مما تركه أهله، لم يكن لها من يهتم بها.

وربما يكون بنو عقيل هم الأقرب إليها، أو الأقدر على إحيائها من غيرهم.

لا حق لمسلم في الأراضي المعطاة:

إنه لا شك في أن الأرض التي كان يقطعها النبي (صلى الله عليه وآله) لم يكن فيها أي حق لأحد من المسلمين، وقد صرح بهذا الأمر في الكتاب الذي كتبه لبلال بن الحارث بالأرض التي أقطعه إياها، حيث قال: (ولم يعطه حقّ مسلم)([14]).

وكذا في كتابه (صلى الله عليه وآله) لبني عقيل([15]).

انتهى المقال

---

[1]- راجع: الكافي ج5 ص28 ومن لا يحضره الفقيه ج3 ص151؛ والوسائل (ط الإسلامية) ج17 ص328 والإستبصار ج3 ص107: وتهذيب الأحكام ج7 ص151 والمقنع ص132.

[2]- راجع: الكافي ج5 ص279 والوسائل (ط الإسلامية) ج17 ص326؛ والإستبصار ج3 ص108؛ وتهذيب الأحكام ج7 ص152؛ وترتيب مسند الشافعي ج2 ص133؛ والأم للشافعي ج3 ص264 و 268؛ وكنز العمال ج3 ص512 و 513 و 516 و 517؛ والأموال لأبي عبيد ص386؛ والسنن الكبرى للبيهقي ج6 ص142 و 143؛ وإرشاد الساري ج4 ص184؛ والخراج للقرشي ص82 و 84؛ ومستدرك الوسائل ج2 ص149؛ وشرح الموطأ للزرقاني ج4 ص424 و425؛ ومجمع الزوائد ج4 ص157؛ ونصب الراية للزيلعي ج4 ص290؛ وجامع أحاديث الشيعة وغير ذلك.

[3]- راجع: مصباح الفقاهة، كتاب الخمس.

[4]- راجع: البحار ج19 ص112.

[5]- راجع: فتوح البلدان للبلاذري ص12.

[6]- معجم البلدان ج5 ص86.

[7]- عن السيرة الحلبية ج2 ص94.

[8]- راجع: الأموال ص394؛ ومكاتيب الرسول ج1 ص329 عن: فتوح البلدان ص31؛ والبخاري ج4 ص116 في فرض الخمس، باب ما يعطي النبي المؤلفة قلوبهم، ومسند أحمد ج6 ص347؛ وفتح الباري ج6 ص181؛ والخراج لأبي يوسف ص66؛ والنهاية لابن الأثير في مادة: قطع. وراجع أصول مالكيت ج2 ص111؛ والمصنف لابن أبي شيبة ج12 ص354؛ وصحيح البخاري ج4 ص116؛ وصحيح مسلم ج4 ص1716؛ والقواعد للشهيد ج1 ص 349؛ وحياة الصحابة ج2 ص691 وراجع: ترتيب مسند الشافعي ج2 ص133؛ والكامل لابن عدي ج4 ص1386؛ والطبقات الكبرى ج3 ق2 ص72.

[9]- معجم البلدان ج5 ص86؛ والطبقات الكبرى (ط ليدن) ج3 ق1 ص72.

[10]- وفاء الوفاء ج4 ص1154.

[11]- راجع: الأموال لابن زنجويه ج2 ص613 و 614 وراجع ص627؛ والأموال لأبي عبيد ص394.

[12]- سبل الهدى والرشاد ج6 ص384؛ ومكاتيب الرسول ج3 ص503 عن: الطبقات الكبرى ج1 ص302 وفي (ط ليدن) ج1 ق2 ص45؛ والبداية والنهاية ج5 ص90؛ ورسالات نبوية ص148؛ ونشأة الدولة الإسلامية ص365؛ ومدينة البلاغة ج2 ص294؛ والإصابة ج3 ص423 في ترجمة مطرف بن عبد الله بن الأعلم. والوثائق السياسية ص312 و 216 عن الطبقات، ورسالات نبوية، وقال: قابل معجم البلدان مادة عقيق، وانظر اشبرنكر ج3 ص513.

[13]- مكاتيب الرسول ج3 ص503 عن معجم البلدان.

[14]- المبسوط للشيخ الطوسي ج3 ص274 ونيل الأوطار ج4 ص309؛ والسنن الكبرى للبيهقي ج6 ص145 و 151؛ ورسالات نبوية ص101 و 102؛ ومسند أحمد ج2 ص306؛ وسنن أبي داود ج3 ص174؛ والأحكام السلطانية ج2 ص198؛ والنهاية في اللغة، مادة قدس.

[15]- راجع: مكاتيب الرسول ج3 ص503 عن المصادر التالية: الطبقات الكبرى ج1 ص302 و (ط ليدن) ج1 ق2 ص45؛ والبداية والنهاية ج5 ص90؛ ورسالات نبوية ص148؛ ونشأة الدولة الإسلامية ص365؛ ومدينة البلاغة ج2 ص294؛ والإصابة ج3 ص423 في ترجمة مطرف بن عبد الله بن الأعلم؛ والوثائق السياسية 312/216 عن

الطبقات، ورسالات نبوية، وقال: قابل معجم البلدان مادة عقيق وانظر اشبرنكر ج3 ص513. أقول: الذي نجده في المعجم ذكره عقيق اليمامة، وهو عقيق بني عقيل قال: فيه قرى ونخل كثير، ويقال له: عقيق تمرة، ولم يذكر الإقطاع والكتاب وراجع البداية والنهاية ج5 ص90.

الهوامش

* إستاذ في الحوزة العلمية وعالم محقق.

قرشيات: اتهام النبي(ص)بالقسوة

الشيخ علي كوراني

قرشيات... اتهام النبي (ص) بالقسوة

الشيخ علي كوراني*

لقد عرف القاصي والداني عظمة أخلاق النبي (صلى الله عليه وآله) ولين جانبه، وإنسانيته الشفّافة وعطفه على كل الناس، حتى إن أعداءه طمعوا بعفوه وكرمه.. وقرأ المسلمون قوله تعالى عن نبيه (صلى الله عليه وآله): **{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأمر فإذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}**([i]).

وقوله تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ}([ii]).

في مقابل هذه الإنسانية الرفيعة، تفاجئك صورٌ منفِّرةٌ رسمتها مخيلة بعض الصحابة عن النبي (صلى الله عليه وآله) فتُظهره تارة بأن عينَه لا تدمع على أحد! وأخرى بأنه يعذِّب بدقِّ المسامير بالأيدي إلى الحائط، ويسمل عيون آخرين بمسامير الحديد المحمّاة، ويقطع أيديهم وأرجلهم، ويمنع عنهم الماء ويتركهم ينزفون حتى يموتوا، ثم يحرقهم بالنار!!

وسنعرض في ما يلي جانبًا من النصوص التي تُظهر هذه الصورة، وسيتبين لك أن الكتب التي تناقلتها تنظر إليها بعين الرضا وتُصرّ على تثبيتها وتأييدها، ولا تأبه لما تسبّبه من تشويهٍ في الصورة الحقيقية للنبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) التي يصفه بها القرآن الكريم فضلاً عن النصوص المتضافرة التي زخرت بها هذه الكتب وسائر كتب السيرة.

بل إن هؤلاء تغافلوا أحيانًا عن النصوص المعارضة التي تتحدّث عن الوقائع نفسها والتي تتضمن تنزيهًا للنبي (صلى الله عليه وآله) وشهادة بنفي ما نسب إليه، بل إنهم ردّوا ما ورد عن أهل البيت الصادقين (عليهم السلام) من تكذيبٍ لبعض رواة هذه النصوص وكشف كون هذا الافتراء على النبي (صلى الله عليه وآله) إنما هو لتبرير قسوة الأمراء من حكّام قريش.

وقد سمّينا هذا النوع من الروايات التي تشوّه صورة النبي (صلى الله عليه وآله) وتطعن في عصمته: **(القرشيات)**، التي تتعاون مع (الإسرائيليات) في هذا الأمر.

صوّروا النبي (صلى الله عليه وآله) بأنه قاسي القلب!

قالت عائشة كما في مسند أحمد:6/141: (ثم دعا سعد (بن معاذ) قال: اللهم إن كنت أبقيتَ على نبيك (ص) من حربِ قريش شيئًا فأبقني لها، وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم فاقبضني إليك. قالت فانفجر كَلْمُهُ (جرحه) وكان قد برئ حتى ما يُرى منه إلا مثل الخرص، ورجع إلى قبّته التي ضرب عليه رسول الله (ص). قالت عائشة: فحضره رسول الله (ص) وأبو بكر وعمر، قالت: فوالذي نفس محمد بيده إني لأعرف بكاء عمر من بكاء أبي بكر وأنا في حجرتي، وكانوا كما قال الله عز وجل رحماء بينهم!

قال علقمة: قلت أي أمَّهْ، فكيف كان رسول الله (ص) يصنع؟ قالت: كانت عينه لا تدمع على أحد! ولكنه كان إذا وَجَدَ فإنما هو آخذ بلحيته)!!

قال في مجمع الزوائد:6/13: (قلت في الصحيح بعضه، رواه أحمد، وفيه محمد بن عمرو بن علقمة وهو حسن الحديث، وبقية رجاله ثقات). انتهى!

ويظهر من كلام عائشة أن أبا بكر وعمر أكثر رقةً وإنسانيةً من النبي (صلى الله عليه وآله) فقد كانا يبكيان وينتحبان على سعد بن معاذ، عندما كان يحتضر في خيمته في المسجد، أما النبي (صلى الله عليه وآله) فلم يكن يبكي على أحد.

كيف نصدّقهم في أن النبي (صلى الله عليه وآله) كان قاسي القلب؟!

معاذ الله، وحاشا رسول الله (صلى الله عليه وآله)! وكيف يصدّق عاقل أن النبي العطوف الرحيم (صلى الله عليه وآله) كان بهذه الصفة، وقد روى الصحابة بكاءه في مناسبات عديدة.

ففي البخاري:8/186: (فلما دخلنا ناولوا رسول الله (ص) الصبي ونفسه تقلقل في صدره، حسبته قال كأنها شِنَّة، فبكى رسول الله (ص)، فقال سعد بن عبادة: أتبكي؟ فقال: **إنما يرحم الله من عباده الرحماء).**

وفي البخاري:2/85: (فلما رأى القوم بكاء النبي بكوا).

وفي مسلم:7/76: (فدمعت عينا رسول الله فقال: تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، والله يا إبراهيم إنا بك لمحزونون). انتهى.

وكيف نصدّق أن عمر كان أرقّ منه؟! وغلظته وشدّته مضرب المثل! وهو الذي كان ينهى عن البكاء على الميت، ويضرب عليه بالسياط؟!

إن هذه الرواية وأمثالها في مصادر المسلمين تشوّه شخصية النبي (صلى الله عليه وآله) الذي استطاع بتعاليم ربّه أن يُطلق من منطقة الجزيرة القاحلة القاسية أعظم مدّ حضاريّ إنساني وأرحمه بالبشرية، وأقلّه كلفة على الإطلاق حيث لم يتجاوز مجموع الذين قُتلوا في معاركه من الطرفين ستمائة شخص!

بينما بلغت خسائر المسلمين في حرب الجمل وحدها التي سببتها عائشة صاحبة هذه المقولة في تمرُّدها مع طلحة والزبير على الخليفة الشرعي، عشرين ألف قتيل!!

ماذا قالوا في آية العقوبة والمحاربة؟

إذا رجعت في مصادرهم الفقهية إلى بحث نهي النبي (صلى الله عليه وآله) عن المُثلة، أو إلى تفسير قوله تعالى: **{وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ}**([iii])، أو تفسير قوله تعالى: **{إنما جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأرض فسادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أيديهم وأرجلهم مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأرض ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}**([iv])، اقشعرَّ بدنك مما ينسبونه إلى النبي (صلى الله عليه وآله) من القتل والتمثيل بالناس!! مخالفين بذلك ما رَوَوه ورويناه من أن النبي (صلى الله عليه وآله) عندما رأى تمثيل قريش وآل أبي سفيان بجثّة عمّه حمزة في أُحد، وأخبروه أن هندًا أمّ معاوية أخذت قطعة من كبده ولاكَتها فلم تستطع مضغها فلفظتها! قال (صلى الله عليه وآله) إنه سيقتصّ بالتمثيل بهم، فنزل قوله تعالى: **{وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ}**([v]). فقال النبي (صلى الله عليه وآله): **أَصْبِر أَصْبِر**. ونهى المسلمين عن المُثلة حتى بالكلب العَقور!

ففي مجمع الزوائد:6/120: (أحزنه ما رأى به فقال: لئن ظفرت بهم لأمثِّلَنَّ بثلاثين رجلاً منهم، فأنزل الله عز وجل في ذلك: **{وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ}**, إلى قوله: **{يمكرون...}** ولما نزل القرآن عفا رسول الله (ص) وتجاوز، وترك المُثل). انتهى.

وفي نهج البلاغة:3/77: (يا بني عبد المطلب لا ألفينّكم تخوضون دماء المسلمين خوضًا تقولون قتل أمير المؤمنين، ألا لا تقتلنّ بي إلا قاتلي، انظروا إذا أنا متُّ من ضربته هذه فاضربوه ضربةً بضربة، ولا يُمَثَّل بالرجل فإني سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: **إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور)**.انتهى.

لكنَّ رواة السلطة مع ذلك، نسبوا إلى النبي (صلى الله عليه وآله) أنه بعد يوم أحد بثلاث سنوات قتل أشخاصًا ومثَّل بهم، وسَمَلَ أعينهم! أي فقأها بمسامير محمّاة، وتركهم عطاشى حتى ماتوا، بل رَوَوا أنه أحرقهم بالنار!! وأن ذلك كان في السنة السادسة للهجرة، أي بعد معركة أُحد بثلاث سنوات! ([vi]).

وقد ارتكب كل فقهائهم نسبة هذه التهمة إلى النبي (صلى الله عليه وآله) مع الأسف! وحجّتهم أن البخاري وغيره رووها عن رواة موثوقين!

قال البخاري في صحيحه:1/64: (عن أنس قال: قدم أناس من عكل أو عرينة فاجتَوَوُا المدينة، فأمر لهم النبي (ص) بلقاح، وأن يشربوا من أبوالها وألبانها، فانطلقوا، فلما صحُّوا قتلوا راعي النبي (ص) واستاقوا النّعم، فجاء الخبر في أول النهار فبعث في آثارهم، فلما ارتفع النهار جيء بهم فقَطَعَ أيديهم وأرجلهم وسُمِّرتْ أعينهم، وأُلقوا في الحرة، يستسقون فلا يسقوْن).

وقال البخاري في:5/70: (فأمر بهم فسمروا أعينهم وقطعوا أيديهم وأرجلهم وتركوا في ناحية الحرة، حتى ماتوا على حالهم. قال قتادة بلغنا أن النبي (ص) بعد ذلك كان يحثُّ على الصدقة، وينهى عن المُثلة). انتهى.

ومقصوده أن النبي (صلى الله عليه وآله) تاب بعد ذلك، وكان ينهى المسلمين عن المثلة، ويحثّ على التصدّق ويتصدّق ليغفر له الله ما ارتكبه من المثلة!!

وقال البخاري في: 4/22: (فبعث الطلب فما ترجَّل النهار حتى أتيَ بهم فقطع أيديهم وأرجلهم، ثم أمر بمسامير فأحميت فكحَّلهم بها، وطرحهم بالحرة يستسقون فما يسقون، حتى ماتوا). **وقال في: 8/19:** (فأمر بمسامير فأحميت فكحَّلهم بها، وقطع أيديهم وأرجلهم، وما حَسَمهم، ثم ألقوا في الحرة).انتهى. **وروى مثله أبو داود: 2/331.**

وقال في عون المعبود:12/15: (قال المنذري: وأخرجه البخاري، ومسلم والنسائي (بمسامير) جمع مسمار... (فكحَّلهم) أي بتلك المسامير المحمّاة. (وما حسمهم) الحسم الكي بالنار لقطع الدم، أي لم يَكْوِ مواضع القطع لينقطع الدم بل تركهم.

ورواه مسلم: 5/102، وفيه: (فجيء بهم فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم، وسمِّرت أعينهم، ثم نُبذوا في الشمس حتى ماتوا... وسمّرت أعينهم وألقوا في الحرة يستسقون فلا يسقون). ورواه أبو داود: 1/602، والترمذي: 2/431

وفي الفائق للزمخشري: 1/212: (قال أنس: فلقد رأيت أحدهم يكدم الأرض بفيه حتى ماتوا عطشًا). انتهى. أي يعضّ الأرض من العطش!!

وفي سبل الهدى: 6/116: (قال أنس كما عند ابن عمر: خرجت أسعى في آثارهم مع الغلمان حتى لقي بهم رسول الله (ص) بالرغابة بمجتمع السيول، فأمر بمسامير فأحميت فكحلهم بها).

وفي تفسير القرطبي: 6/148: (قال جرير: فكانوا يقولون الماء، ويقول رسول الله (ص): النارا وقد حكى أهل التواريخ والسير: أنهم قطعوا يدي الراعي ورجليه وغرزوا الشوك في عينيه حتى مات، وأدخل المدينة ميتًا! وكان اسمه يسار وكان نوبيًا. **وكان هذا الفعل من المرتدين سنة ست من الهجرة. وفي بعض الروايات عن أنس: أن رسول الله (ص) أحرقهم بالنار بعد ما قتلهم)!!**

يتبع =

---

[i] - سورة آل عمران: 159.

[ii] - سورة التوبة: 128.

[iii] - سورة النحل: 126.

[iv] - سورة المائدة: 33

[v] - سورة النحل: 126.

[vi] - تفسير القرطبي: 2/146

.

تتمة مقال - قرشيات

زعموا أن الله تعالى وبَّخ نبيه (صلى الله عليه وآله) على ما ارتكب!

قال الشوكاني في نيل الأوطار: 7/331: (وعن أبي الزناد: أن رسول الله (ص) لما قطع الذين سرقوا لقاحه وسمل أعينهم بالنار، عاتبه الله في ذلك فأنزل: **{إنما جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأرض فسادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا}**.. الآية([1]). رواه أبو داود والنسائي... حديث أبي الزناد مرسل، وقد سكت عنه أبو داود، ولم يذكر المنذري له علّة غير إرساله، ورجال هذا المرسل رجال الصحيح، وقد وصله أبو الزناد من طريق عبد الله بن عبيد الله بن عمر، عن عمر، كما في سنن أبي داود في الحدود، ويؤيده ما أخرجه أبو داود والنسائي من حديث ابن عباس: أن ناسًا أغاروا على إبل رسول الله (ص) وارتدّوا عن الإسلام وقتلوا راعي رسول الله (ص) مؤمنًا فبعث في آثارهم فأخذوا فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم قال: فنزلت فيهم آية المحاربة... وأخرج أبو داود والنسائي عن ابن عمر، أن الآية نزلت في العرنيين). انتهى.

يقصد الشوكاني أن النبي (صلى الله عليه وآله) ارتكب ذنْب سمْل العيون والمُثلة، فعاتبه الله وأنزل آية حكم المحاربين المفسدين بقطع الأيدي والأرجل فقط!

وقال الطبري في تفسيره: 6/285: (حدثني علي بن سهل قال: حدثنا الوليد بن مسلم قال: ذاكرت الليث بن سعد ما كان من سمل رسول الله (ص) أعينهم وتركه حسمهم حتى ماتوا! فقال: سمعت محمد بن عجلان يقول: أنزلت هذه الآية على رسول الله (ص) معاتبةً في ذلك، وعلَّمَه عقوبة مثلهم من القطع والقتل والنفي، ولم يسمل بعدهم

غيرهم. قال: وكان هذا القول ذكر لأبي عمرو فأنكر أن تكون نزلت معاتبة، وقال: بلى كانت عقوبة أولئك النفر بأعيانهم، ثم نزلت هذه الآية في عقوبة غيرهم ممن حارب بعدهم، فرفع عنه السمل).انتهى.(والدر المنثور:2/278).

ومناقشة الوليد بن مسلم للَّيث، وهما من كبار الرواة عندهم، تدل على شكهم واستغرابهم نسبة المعصية والتوبيخ الإلهي إلى النبي (صلى الله عليه وآله)! بل نجد أن بعضهم تبرع بنفي ذلك، واكتفى بنسبة نيّة ذلك فقط إلى النبي (صلى الله عليه وآله)!

قال الطبري في تفسيره:6/285: (عن السدي قال: فبعث رسول الله (ص) فأُتي بهم يعني العرنيين فأراد أن يسمل أعينهم، فنهاه الله عن ذلك، وأمره أن يقيم فيهم الحدود كما أنزلها الله عليه). انتهى.

وقال الشافعي في الأم:4/259: (وإذا أسَرَ المسلمون المشركين فأرادوا قتلهم قتلوهم بضرب الأعناق، ولم يجاوزوا ذلك إلى أن يمثلوا بقطع يد، ولا رجل ولا عضو ولا مفصل، ولا بَقْر بطن، ولا تحريق ولا تغريق، ولا شيء يعدّ مثلة. وما وصفت لأن رسول الله (ص) نهى عن المثلة وقتل من قتل كما وصفت.

فإن **قال قائل**: قد قطع أيدي الذين استاقوا لقاحه وأرجلهم وسمل أعينهم.

فإن أنس بن مالك ورجلاً رويا هذا عن النبي (ص)، ثم رويا فيه أو أحدهما أن النبي (ص) لم يخطب بعد ذلك خطبة إلا أمر بالصدقة ونهى عن المثلة.

أخبرنا سفيان عن ابن أبي نجيح أن هبَّار بن الأسود كان قد أصاب زينب بنت رسول الله (ص) بشيء فبعث النبي (ص) سرية فقال: **إن ظفرتم بهبَّار بن الأسود فاجعلوه بين حزمتين من حطب ثم أحرقوه.** ثم قال رسول الله(ص): سبحان الله ما ينبغي لأحد أن يعذّب بعذاب الله عز وجل، إن ظفرتم به فاقطعوا يديه ورجليه. وكان علي بن حسين يُنكر حديث أنس في أصحاب اللقاح. أخبرنا ابن أبي يحيى، عن جعفر، عن أبيه، عن علي بن حسين قال: **والله ما سَمَلَ رسول الله (ص) عينًا ولا زاد أهل اللقاح على قطع أيديهم وأرجلهم). انتهى.**

ومقصود الشافعي أنه ثبت عنده أن النبي (صلى الله عليه وآله) أمر بإحراق هبَّار بن الأسود بالنار ثم ندم وسحب أمره، وهبَّار هذا تعرّض لزينب ابنة النبي (صلى الله عليه وآله) في طريق هجرتها إلى المدينة، ونخس راحلتها وألقاها عنها فأسقطت جنينها!

كما ثبت عند الشافعي أن النبي (صلى الله عليه وآله) قد سمل أعين الذين سرقوا الإبل وقتلوا رعاتها، لأنه يرجّح رواية البخاري وغيره من رواة السلطة، على رأي الإمام زين العابدين (عليه السلام) الذي نفى نسبة ذلك إلى جده رسول الله (صلى الله عليه وآله) وحلف على نفيه!

وقال ابن حجر في فتح الباري:1/294: (قال ابن شاهين عقب حديث عمران بن حصين في النهي عن المُثلة: هذا الحديث ينسخ كل مثلة. وتعقبه ابن الجوزي بأن ادّعاء النسخ يحتاج إلى تاريخ. قلت: يدل عليه ما رواه البخاري في الجهاد من حديث أبي هريرة في النهي عن التعذيب بالنار بعد الإذن فيه. وقصة العرنيين قبل إسلام أبي هريرة وقد حضر الأمر ثم النهي. وروى قتادة عن ابن سيرين أن قصتهم كانت قبل أن تنزل الحدود، ولموسى بن عقبة في المغازي: وذكروا أن النبي (ص) نهى بعد ذلك عن المثلة بالآية التي في سورة المائدة، وإلى هذا مال البخاري، وحكاه إمام الحرمين في النهاية عن الشافعي)انتهى.

يقصد ابن حجر أن نهي النبي (صلى الله عليه وآله) عن المثلة كان بعد نزول آية حد المحارب في سورة المائدة، التي هي آخر سورة نزلت من القرآن، فقد نزلت قبيل وفاة النبي! ومعناه أنه (صلى الله عليه وآله) لم ينهَ عنها في السنة السادسة بعد قصة العرنيين!

بينما قال ابن نجيم في البحر الرائق:1/202: (والمثلة المروية في قصة العرنيين منسوخة بالنهي المتأخر، وأراد بالنهي المتأخر ما ذكره البيهقي عن أنس قال: ما خطبنا رسول الله (ص) بعد ذلك خطبة إلا نهى فيها عن المثلة) انتهى.

أقول: وكل غرضهم من ذلك إثبات أن النبي (صلى الله عليه وآله) ارتكب المثلة في قصة العرنيين، ونهى عنها بعدها مباشرة، أو بعدها بثلاث سنوات!!

الصحيح أن النبي (صلى الله عليه وآله) لم يرتكب شيئًا من ذلك

والصحيح أن النبي (صلى الله عليه وآله) لم يرتكب المُثلة ونهى عنها في أحد، وأنه قد يكون نوى بعد مقتل حمزة وتمثيل بني أمية به، أن يقتصّ منهم، فأنزل الله تعالى ترجيح الصبر بقوله تعالى: **{وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَاعُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ}**([2]) فاختار النبي (صلى الله عليه وآله) الصبر وأمر به المسلمين به، ونهاهم عن المثلة التي نَووها. وكان ذلك في معركة أحد في السنة الثالثة للهجرة، قبل قصّة العرنيين بأربع سنوات، وقبل فتح مكة بست سنوات. وقد رواه الجميع واتفقت عليه الرواية عن أهل البيت (عليهم السلام)! ([3]).

وممن وافقنا منهم أو أورد رواية نزولها في أحد:

الحاكم في المستدرك: 3/197، وابن حزم: 10/377، والشوكاني في نيل الأوطار: 8/172، وابن أبي شيبة في المصنف: 8/485، والبيهقي في سننه: 6/376، والطبراني في الكبير: 11/52، ومحمد بن سلمة في شرح معاني الآثار: 3/183، والمحاملي في أماليه ص 128، وابن حبان في صحيحه: 2/239، والدارقطني في سننه: 4/64، وابن حجر في فتح الباري: 7/286، والزيلعي في نصب الراية: 2/366، وابن أبي الحديد في شرح النهج: 4/64 و:

15/17، والمناوي في فيض القدير:6/367، والنحاس في معاني القرآن:4/51 و112، والواحدي في أسباب النزول ص 192، والهيثمي في مجمع الزوائد:6/ 119، عن أبي هريرة، وضعفها بصالح بن بشير، وفي ص120، وضعفها بأحمد بن أيوب بن راشد). والطبري في تفسيره:14/253، وقال: (وقد اختلف أهل التأويل في السبب الذي من أجله نزلت هذه الآية وقيل هي منسوخة أو محكمة) وكأنه رجح نزولها في أحد.

لكن القوم لا يريدون الاعتراف بنزولها في أحد حتى لو رووه بسند صحيح!

بل حتى لو رواه البخاري كما شهد الثعالبي، ولكنهم لا يريدونه لأنه يكذّب ما نسبوه إلى النبي (صلى الله عليه وآله) من مُثلةٍ في قصة العرنيين في السنة السادسة، وهم بحاجة إلى هذه النسبة من أجل تبريرِ فعلِ بعض كبار الصحابة، وإحراقه رجلين بالنار!

قال السيوطي في الدر المنثور:4/135: (وأخرج ابن سعد، والبزار، وابن المنذر، وابن مردويه، والحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل، عن أبي هريرة أن النبي (ص) وقف على حمزة حين استشهد فنظر إلى منظر لم ير شيئًا قط كان أوجع لقلبه منه، ونظر إليه قد مُثّل به فقال: **رحمة الله عليك، فإنك كنت ما علمت وصولاً للرحم، فعولاً للخيرات، ولولا حزن من بعدك عليك لسرني أن أتركك حتى يحشرك الله من أرواح شتى! أما والله لأمثلن بسبعين منهم مكانك. فنزل جبريل -والنبي (ص)واقف- بخواتيم النحل: وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَاعُوقِبْتُمْ بِهِ.. الآية**، فكفَّر النبي (ص)عن يمينه وأمسك عن الذي أراد وصبر.

وأخرج ابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: قال رسول الله(ص) يوم قتل حمزة ومُثِّل به: **لئن ظفرت بقريش لأمثلنّ بسبعين رجلاً منهم فأنزل الله: وإن عاقبتم.. الآية. فقال رسول الله (ص): بل نصبر يا ربّ، فصبر ونهى عن المثلة.**

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وابن جرير، عن الشعبى قال: لما كان يوم أحد وانصرف المشركون فرأى المسلمون بإخوانهم مُثْلَةً، جعلوا يقطعون آذانهم وآنافهم ويشقّون بطونهم، فقال أصحاب رسول الله(ص): لئن أنالنا الله منهم لنفعلنّ ولنفعلنّ، فأنزل الله: **وإن عاقبتم.. الآية،** فقال رسول الله (ص): **بل نصبر.** وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، عن عطاء بن يسار قال: نزلت سورة النحل كلها بمكة، إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة يوم أحد، حيث قتل حمزة ومُثِّلَ به، فقال رسول الله(ص): **لئن ظهرنا عليهم لنمثلنّ بثلاثين رجلاً منهم**، فلما سمع المسلمون ذلك قالوا: والله لئن ظهرنا عليهم لنمثلنّ بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط، فأنزل الله: **وإن عاقبتم فعاقبوا.. إلى آخر السورة).**

ولكن السيوطي مع كل هذه الروايات، مال مع جمهورهم الذين لهم غرض في إثبات أن النبي (صلى الله عليه وآله) قد مثَّل بالعرنيين، ورجّح أن نزول آية العقوبة تأخر الى فتح مكة في السنة الثامنة! قال في الدر المنثور: 4/135: قوله تعالى: {وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به}.. الآية، أخرج الترمذي وحسَّنه، وعبد

الله بن أحمد في زوائد المسند، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وابن مردويه، والحاكم وصحَّحه، والبيهقي في الدلائل، عن أبي بن كعب قال: لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلاً ومن المهاجرين ستة منهم حمزة، فمثّلوا بهم فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يومًا مثل هذا لنربِّينَّ عليهم، فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله: **{وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ}**، فقال رسول الله(ص): **نصبر ولا نعاقب كفوا عن القوم إلا أربعة). انتهى.** (وذكر نحوه في لباب النقول ص121). **كما رووا نزولها في فتح مكة وقَوَّوه وصححوا حديثه: كما في مسند** أحمد: 5/135 والترمذي: 4/362، والحاكم:2/359 و466، والطبراني في الكبير: 3/144، والشوكاني في نيل الأوطار: 8 /172، وابن كثير في تفسيره: 2/614.

وأخيرًا، لو سلّمنا صحة رواياتهم في نزول آية العقوبة في مكة، فلا تنافي رواية نزولها في أحد قبل خمس سنوات! فَلَيْتَهم سلكوا هذا المسلك العقلائي في الجمع بينها، كما في هامش تفسير الجلالين ص510، قال: (وظاهر هذا تأخّر نزولها إلى الفتح، وفي الحديث الذي قبله نزولها بأحد، وجمع ابن الحصار بأنها نزلت أولاً بمكة، ثم ثانيًا بأحد، ثم ثالثًا يوم الفتح، تذكيرًا من الله لعباده). انتهى.

ولكنهم لا يريدون تكذيب جماعتهم في نسبة سَمْل العيون إلى النبي (صلى الله عليه وآله)!! فرواياتهم لا ترد حتى لو لزم منها التنقيص من مقام النبي (صلى الله عليه وآله)، والتناقض!

قال الطبري في تفسيره: 6/283: (وأولى الأقوال في ذلك عندي أن يقال: أنزل الله هذه الآية على نبيه (ص) معرفة حكمه على من حارب الله ورسوله وسعى في الأرض فسادًا، بعد الذي كان من فعل رسول الله (ص) بالعرنيين ما فعل.... وقلنا: كان نزول ذلك بعد الذي كان من فعل رسول الله (ص) بالعرنيين ما فعل لتظاهر الأخبار عن أصحاب رسول الله (ص) بذلك). انتهى.

وذكر العلامة مرتضى في الصحيح من السيرة: 6/275: أن سعيد بن جبير نفى أن يكون النبي (صلى الله عليه وآله) قد سمل عيون أحد لقوله: (فما مثَّل رسول الله (ص) قبل ولا بعد)، وقد فهم النفي من عبارة ابن جبير، لكن مقصوده بقوله إن النبي (صلى الله عليه وآله) ما فعل إلا في قصة العرنيين لا قبلها ولا بعدها، إثباتها ونفي ما عداها، وليس النفي المطلق. **وأصل رواية ابن جبير في تفسير الطبري:6/281، عن ابن شقيق قال:** (حدثني سعيد بن جبير عن المحاربين، فقال: كان ناس أتوا النبي(ص) فقالوا: نبايعك على الإسلام، فبايعوه وهم كذَبَة وليس الإسلام يريدون. ثم قالوا: أنا نجتوي المدينة، فقال النبي(ص): هذه اللقاح تغدو عليكم وتروح، فاشربوا من أبوالها وألبانها. قال: فبينا هم كذلك إذ جاء الصريخ، فصرخ إلى رسول الله (ص) فقال: قتلوا الراعي، وساقوا النَّعم! فأمر نبي الله فنودي في الناس أن: يا خيل الله اركبي. قال: فركبوا لا ينتظر فارس فارسًا. قال: فركب رسول الله (ص) على أثرهم، فلم يزالوا يطلبونهم حتى أدخلوهم مأمنهم، فرجع صحابة رسول الله (ص) وقد أسروا منهم، فأتوا بهم النبي(ص) فأنزل الله: **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله... الآية،** قال: فكان نفيهم أن نفوهم، حتى

أدخلوهم مأمنهم وأرضهم، ونفوهم من أرض المسلمين، وقتل نبي الله منهم وصلب وقطع وسمل الأعين. قال: فما مثّل رسول الله (ص) قبل ولا بعد. قال: ونهى عن المثلة، وقال: لا تمثّلوا بشيء. قال: فكان أنس بن مالك يقول ذلك، غير أنه قال: أحرقهم بالنار بعد ما قتلهم). انتهى.

فقد صرّح بأن النبي (صلى الله عليه وآله) قتل منهم وصلب وقطع وسمل الأعين، حتى بعد نزول آية المحاربة، وأنه لم يكن فعل ذلك من قبل ولا فعله بعده، بل نهى عن المثلة!

فقول ابن جبير أشد من قول غيره! لأنه ينسب الى النبي (صلى الله عليه وآله) أنه سمل عيونهم وصلبهم حتى بعد نزول آية المحاربة، وأنه ندم عليه ونهى عن المثلة!!

كما نسبت الرواية إلى النبي (صلى الله عليه وآله) عن لسان أنس أنه أحرقهم بالنار، وورد ذلك عن أنس في عدة مصادر، وقد شابه أنس أبا الزناد الموظف عند بني أمية والذي قال عن النبي (صلى الله عليه وآله): (فلما وُعظ ونُهِيَ عن المثلة، لم يعد)!!(تفسير القرطبي:6/149).

يتبع =

---

[1] - سورة المائدة: 33

[2] - سورة النحل: 126

[3] - راجع: تفسير القمي: 1/123، وص392، وتفسير العياشي: 2/274، والتبيان: 6/440، وقال: ذكره الشعبي وقتادة وعطاء. ومجمع البيان: 6/135 و211، وجوامع الجامع: 2/313، وشرح الأخبار: 1/ 275 و:3/230، وذخائر العقبى ص 180و182، ومناقب آل أبي طالب: 1/166، والهداية الكبرى ص 346، والعمدة ص 453، وإقبال الأعمال: 3/83، ومستدرك الوسائل: 2/257، وتفسير الميزان: 12/203

.

تتمة مقال - قرشيات

شهادة من الثعالبي على تحريف نسخة البخاري!

قال في تفسيره:3/448: (أطبق أهل التفسير أن هذه الآية مدنية نزلت في شأن التمثيل بحمزة وغيره في يوم أحد، ووقع ذلك في صحيح البخاري وغيره، وقال النبي(ص): **لئن أظفرني الله بهم لأمثلنّ بثلاثين،** وفي كتاب النحاس وغيره بسبعين منهم، فقال الناس: إن ظفرنا لنفعلن ولنفعلن، فنزلت هذه الآية، ثم عزم على النبي (ص)

في الصبر عن المجازاة بالتمثيل في القتلى. ويروى أنه (عليه السلام) قال لأصحابه: أما أنا فأصبر كما أمرت فماذا تصنعون؟ فقالوا نصبر يا رسول الله كما ندبنا الله).

أقول: في كلام الثعالبي أمران مهمان، أولهما، أن إطباق أهل التفسير على نزول الآية وصدور النهي عن المُثلة في أحد، أي السنة الثالثة للهجرة. والإطباق يشبه الإجماع، ويدل على غلبة اتجاه تنزيه النبي (صلى الله عليه وآله) عند قدماء مفسريهم.

وثانيهما، أن البخاري قد روى ذلك في صحيحه، ولا نجده في صحيحه ولا في باقي كتبه، فلا بد أن تكون نسخة الثعالبي مختلفة، وأن يتجه الاتهام إلى النسخة التي بأيدينا، وأنهم أسقطوا منها ذلك الحديث، أو حذفوه!

واتهموا النبي (صلى الله عليه وآله) بأنه لم يَسْقِ الماء لمن قتلهم ومَثَّلَ بهم!!

قال ابن حجر في فتح الباري:1/294: (واستشكل القاضي عياض عدم سقيهم الماء للإجماع على أن من وجب عليه القتل فاستسقى لا يمنع! وأجاب: بأن ذلك لم يقع عن أمر النبي (ص)، ولا وقع منه نهي عن سقيهم. انتهى. وهو ضعيف جدًا لأن النبي(ص) اطلع على ذلك، وسكوته كاف في ثبوت الحكم). انتهى.

أقول: كأن ابن حجر يوافق ابن تيمية في قوله عن كتاب الشفاء لعياض: **غلا هذا المغيربي!!** ويقول لعياض: لا تغالِ في النبي (صلى الله عليه وآله) فقد كان سمْل العيون بأمره وعلمه!! (نقله عن ابن تيمية الشريف الدكتور محمود السيد صبيح في كتابه **أخطاء ابن تيمية في حق رسول الله وأهل بيته،** عن فهرس الفهارس:1/201 لعبد الحي كتاني).

أهل البيت (عليهم السلام) دافعوا عن النبي (صلى الله عليه وآله) وكشفوا كذب الرواة!

روى الصدوق (رحمه الله) في علل الشرائع:2/541، عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: **(إن أول ما استحل الأمراء العذاب لكذبة كذبها أنس بن مالك على رسول الله - صلى الله عليه وآله - أنه سمَّر يد رجل إلى الحائط، ومن ثم استحل الأمراء العذاب!!)**. انتهى.

وهذا يضع يدنا على سبب من أسباب كذبهم على رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن عمدٍ وإصرار، لأجل تبرير ظلم الخليفة أو أحد ولاته للمسلمين!

ويدلّنا على أن جميع أحاديث هذا الباب موضوعة، ما في كتاب الأم للشافعي من إنكار الإمام زين العابدين (عليه السلام) زعمهم أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) سَمَل عينَ أحدا! **ورواه الشافعي أيضًا في مسنده ص315:** (أخبرنا إبراهيم بن أبي يحيى، عن جعفر، عن أبيه، عن علي بن الحسين قال: **لا والله ما سَمَل رسول الله (ص)**

عينًا، ولا زاد أهل اللقاح على قطع أيديهم وأرجلهم). انتهى.

ورواه البيهقي في سننه:9/70، وقال: (حديث أنس حديث ثابت صحيح، ومعه رواية ابن عمر، وفيهما جميعًا أنه سمل أعينهم، فلا معنى لإنكار من أنكر، والأحسن حمله على النسخ). انتهى. ومعناه أن البيهقي لم يأخذ بشهادة الإمام زين العابدين (عليه السلام)، ورجح شهادة أنس بن مالك وعبدالله بن عمر عليها!!

وتغافل عن شهادة ابن عباس التي تنزّه النبي (صلى الله عليه وآله)، والتي رواها الطبري في تاريخه**:2/208**: (عن ابن عباس قال: إن الله عز وجل أنزل في ذلك من قول رسول الله (ص) وقول أصحابه: **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به.. إلى آخر السورة**، فعفا رسول الله (ص) وصبر ونهى عن المثلة). انتهى.

وتغافل عن شهادة ابن عباس التي رواها ابن هشام في سيرته:3/611، قال: (عن ابن عباس، أن الله عز وجل أنزل في ذلك، من قول رسول الله (ص) وقول أصحابه: **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به...الآية،** فعفا رسول الله (ص) وصبر ونهى عن المثلة).

فلماذا يُصرّ علماء السلطة أتباع خلافة قريش، على اتهام النبي (صلى الله عليه وآله) بالقسوة والظلم وانتهاك حقوق الإنسان! ويردّون تأكيدات أهل البيت (عليهم السلام), ويصرون على نزول آية العقوبة بعد ذنب النبي (صلى الله عليه وآله) وتمثيله بالرعاة العرنيين.

ولماذا يردّون الأحاديث التي رووها هم التي تنصّ على أنها نزلت في أحد مع أن فيها الصحيح عندهم! فإذا وجدت أحاديث صحيحة متعارضة بعضها يطعن في النبي (صلى الله عليه وآله) وبعضها ينزّهه، فلماذا يرجّحون اتهامه (صلى الله عليه وآله)؟!

البخاري يصرّ على أن النبي (صلى الله عليه وآله) عصى ربه

قال البخاري في:5/70: (فأمر بهم فسمَّروا أعينهم وقطعوا أيديهم وأرجلهم وتُركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم. قال قتادة بلغنا أن النبي (ص) بعد ذلك كان يحثّ على الصدقة وينهى عن المثلة). انتهى. هل معنى ذلك أن النبي (صلى الله عليه وآله) عصى الله في سمل أعينهم والتمثيل بهم ثم تاب؟!

كما ينبغي الانتباه إلى عبارة (سرقوا لقاحه) التي كرّروها في أحاديث الباب، فهل كانت الإبل ملكًا شخصيًا للنبي (صلى الله عليه وآله)؟ وكأنه غضب لنفسه ومثَّل بهم؟!

هذا غيض من فيض

في الختام، هذا باب واحد من عشرات الأبواب التي غصّت بأحاديثها الصحاح والسنن والمسانيد مع الأسف! مثل كذبهم عليه لتبرير النبيذ ومجالس الغناء! وكذبهم على النبي (صلى الله عليه وآله) لرفع لعن من لعنهم! وكذبهم عليه لمدح زعماء قريش! وكذبهم عليه (صلى الله عليه وآله) لذمّ أهل بيته الطاهرين (عليهم السلام)! وكذبهم عليه لرد أوامره التي تتعلق بأمور الدنيا لأنهم أخبر منه بها!

ترى ألا يستحق هذا النوع من الموضوعات أن نسمّيها **بالقرشيات أسوة بالإسرائيليات**!!

انتهى المقال

الهوامش

* مفكر إسلامي وباحث في شؤون العقيدة.

الإسلام في مواجهة التحدّيات

د. حسن جعفر نور الدين

(مسألة الرسوم) قضايا قديمة أم جديدة

د. حسن جعفر نور الدين*

محنة الإسلام في الغرب

في خضم ما يدور من أحداث، وعلى ضوء ما يُسمع من أخبار تتناول شخصية النبي محمد (صلى الله عليه وآله) التي أدهشت العالم أجمع منذ ولادته وحتى اليوم.

على ضوء ما يُسمع، ويُقرأ، نرى لزامًا علينا أن لا نغفل عن إبداء الرأي وتسجيل بعض المواقف.

ونستطيع أن نقول بكل وضوح، أنه لو لم تكن شخصيّة الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) مُلهمة وخلاقة، لما كان يدور حولها حديث من هنا وآخر من هناك، سواء كان سلبًا أو إيجابًا.

لقد قرأنا عن النبي (صلى الله عليه وآله) أحاديث هي في قسمٍ منها مصدر اعتزاز وفرح، وفي القسم الآخر مصدر استنكار وقلق.

ولو لم تكن هذه الشخصية العملاقة قد تجاوزت الحدود الجغرافية والزمنية لما استحوذت على هذا الكمّ الهائل من الدراسات الذي ما زال يُولد يومًا بعد يوم.

ولعمري فإنّ المواقف السلبية والأحاديث الجارحة بحق الرسول (صلى الله عليه وآله) ما هي إلا زوبعات عقيمة سُرعان ما تتلاشى وتَضمحل على صخرة المدّ الرسولي، ولن تؤثّر صيحات المغامرين وتعصّب الموتورين على نورانية نبي الرحمة الذي أكرمه الله فاستغنى عن كل تكريم آخر.

ولن تكون صيحات هؤلاء وتصرّفاتهم بأدهى مما لاقاه الرسول في حياته على يدِ نفرٍ من أقربائه ومعارضيه.

كانت تصرّفاتهم آنذاك لا ترتدّ إلا عليهم، وبقي نجم الرسول يصعد في سماء العالم أجمع، يفرض احترامه ومكانته وجلاله، حتى عند خصومه الذين كانوا رغم معارضتهم له يُقرّون بفضله وعظمته، فسمّي الأمين والصادق واختير حكَمًا بين القبائل في أكثر من موقف.

إذن لم تكن الحملة على الرسول بجديدة، لقد بدأت منذ سطوع اسمه في الجزيرة العربية، فكان له محبّون، ومبغضون، مؤيدون ومناجزون.

قبل أن يهبط عليه الوحي بسنوات، وخلال رحلة تجارية له إلى الشام، لَمَحه الراهب بحيرى في بُصرى الشام، فتوسّم فيه الشأن العظيم، ورأى في ملامحه ما علمه من دينه أنه سيُبعث في الجزيرة العربية نبيّ جديد، فربّت الراهب على كتفه وقال له: سيكون لك شأن عظيم يا بني، منذ تلك اللحظة تلاقت المسيحية بالإسلام، إنها الإرهاصات الأولى لضرورة التلاقي الحميد بين الأديان السماوية على قاعدة المنفعة والخير للبشرية جمعاء([i]).

وأظنّ أن الرسّامين الغربيين الذين سوّلت لهم أنفسهم، وجَنَت عليهم أيديهم ونواياهم اقتراف هذا الإثم الكبير، أظن أنهم لم يقرأوا عن الرسول ولا عرفوه، ولا دروا ما أدلى بحقّه العلماء والأدباء والفلاسفة والشعراء، الشرقيّون والغربيون على السواء، أو أنهم صمّوا آذانهم عن سماع الحقيقة الدامغة، واستسلموا لمكوّنات نفوسهم المجبولة بالتعصّب والتجنّي والافتراء.

ومهما يكن من أمر، فلن يحصدوا إلا السّراب، ولن تستطيع أقلامهم وأقلام من سبقهم ومن سيليهم طَمْس هذا الدين الحنيف الذي تكفّل الله بحمايته بقوله تعالى **{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}**([ii]).

لم تكن الحملة على الرسول كما أسلفت جديدة، بدأت مع المشركين آنذاك، ثم تفاقمت حتى اضطره الأمر إلى الطلب من أصحابه الهجرة إلى الحبشة، ومن ثمَّ كانت الهجرة الكبرى أو الثانية إلى المدينة المنوّرة، علاوة على مبلغ ما عاناه من يهود الجزيرة العربية حتى لحظات وفاته([iii]).

كانت سهام حقدهم تُصيبه في حياته فكيف تكون في غيابه.

نعم. ليسوا أوّل الخائبين، ثم استمرّ الأمر عبر العصور، مرورًا بالتحدّيات التي تعرّض لها الإسلام، وأدهاها مرحلة الحروب الصليبية التي أذكت البَغضاء والشحناء، وكانت شرًّا على المسيحية والإسلام، وشجّعت أصحاب الآراء المتطرفة على الجهر بها حيث وجدت الأرض الخصبة لذلك، والمناخ الملائم، لأن أعتى صنوف الحروب والنزاعات هي الحروب الدينية، لعلاقتها بالمشاعر والأحاسيس والوجدان.

ظلّ سَيل التشكيك متواترًا ووقحًا، ينطلق على ألسنة كثير من المستشرقين المتعصّبين، فزعم المستشرق الألماني "مرغليوث" أن محمدًا كان يعيش من أموال السلب وغير ذلك.

وأفظع من ذلك بعض ما ورد من أشعار وأناشيد في القرون الوسطى رسخت خرافاتها في الأذهان، فقد وصفوا المسلمين بأنهم مشركون وعبدة أوثان، وأنهم جعلوا لهم آلهة ثلاثة، ماهوم وبافوميد وياهوميد، وأن نبيهم محمدًا كان يدعو الناس لعبادته في صورة وَثَنٍ من ذهب، وفي بعض قصصهم أن الله - إله محمد - جاء في موكب عظيم يضرب بالطبل والمزامير والكلّ يرقصون ويغنّون.

وقد افترى الأب "هنري لامانس" البلجيكي على الإسلام بمزاعم كثيرة باطلة، إذ وصف الرسول بعدم الشجاعة في كتابه [الإسلام]، علاوة على نعته بأبشع ما يظهره الحقد والكراهية، حتى لكأننا نسمع أسلوب رُهبان القرون الوسطى الذين لم يكن في جعبتهم إلا السُّباب والشتائم، حتى أنه قال في كتابه [مهد الإسلام] ص190: ((إن قراءة القرآن تقزز النفس))([iv]).

وقد بلغ الإسفاف بأحدهم - وهو أميركي - أن طلب سنة 2002م دكّ الكعبة الشريفة، وقال عضو مجلس الشيوخ البريطاني "غريفن" سنة 2004م: أن الإسلام عقيدة فاسدة، أما المستشرق الغربي "دانيال نورمن" فإنه ذكر: أن المسلمين لصوص وقتلة، إلى غير ذلك من النعوت القاسية، ودفع الغرور والتعصّب بأحد الوزراء الإيطاليين إلى ارتداء قميص عليه رسوم الرسول الكاريكاتورية، إمعانًا في الكراهية والحقد.

وقد لحقهم سيّدهم "بوش" عندما تحدّث عن الزمن الصليبي القادم إلى الشرق، وهو وإن ادّعى أن ما صدر منه زلّة لسان، فهذا غير صحيح، وما تقدّم به كان مدروسًا ولم يأت من فراغ ويدل على نوايا مبيّتة تخدم الصهيونية ومصالحها.

ما الغاية؟

ولكن ما الغاية التي يرمي إليها بعض العالم الغربي من خلال أبواق فتنةٍ تذرّ بِقَرنها من آنٍ لآخر، وتُلهب الساحة العالمية بجرعات التعصب والعنف، ولا نستطيع أن ننظر إلى ما يجري بمعزلٍ عن الأحداث التي تعمّ الساحة الدولية، فكل حدث يحصل تكون له دلالاته ودوافعه وغاياته.

إذن، ما هي مبرّارت هذا العمل الآثم الذي أقدمت عليه مجموعة من الرسّامين العنصريين، ولماذا تبنّاه كثير من المسؤولين الغربيين وأشادوا به ودافعوا عنه؟ في الوقت الذي كان يجب عليهم استنكاره ومعاقبة مرتكبيه، إذا كانوا حريصين على علاقات نقيّة بين الشرق المسلم والغرب المسيحي.

لكن الظاهر أن أحد أهداف الغرب هو احتواء الشرق، والسيطرة عليه من النواحي كافّة، وإخضاعه لمجموعة القيم التي تُعدّ في المطبخ الغربي تمهيداً لتعميمها على دول الشرق العربي، وقد بدأت فعلاً هذه النوايا تظهر إلى العيان وتُنَفّذ في أكثر من دولة، ابتداءً بأفغانستان والسودان والعراق وانتهاء بسوريا ولبنان، علاوة على دول أخرى تتّخذ سياسة الممانعة في علاقتها مع الدول الاستعمارية.

وليست هذه التظاهرات التي عمّت العالم الإسلامي وما تخلّلها من تحطيم عدد من السفارات الأجنبية، وبصورة خاصة الدانماركية والإيطالية، والتعليقات التي صدرت من المسؤولين وغيرهم عبر وسائل الإعلام إلا صورة من صور التعبير عن الامتعاض والاستياء من السياسة الاستعمارية التي كانت تلك الرسوم الكاريكاتورية أحد وجوهها المُنكرة.

وفي الوقت نفسه كان دخول الصحافة الغربية في هذا الموضوع سافراً ومتحيّزاً وبربريًا، لقد أسهمت عن قصد وتعمّد في تغذية التوتر وتعميق الجرح لأهداف وأغراض مبيّتة وغير بعيدة عن الصهيونية العالمية، التي تحاول منذ إنشاء كيانها المغتصب تأليب الغرب على العالَمين العربي والإسلامي، ودفع هذه الأطراف إلى التصادم العقائدي والفكري والحضاري تمهيداً للتصادم العسكري الذي يُرسّخ وجودها هي كدولة مُهيمنة في الشرق الأوسط.

وما الموقف الأميركي والأوروبي من المُفاعل النووي الإيراني وإصراره على منع إيران من امتلاك التكنولوجيا النووية للأغراض السلمية إلا جزءًا من الحرب العلنية والخفيّة على الإسلام والمسلمين.

هذه الحرب على الإسلام تأخذ أكثر من منحى واتجاه، وما سياسة العولمة التي تحاول الولايات المتّحدة الأميركية تعميمها على العالم أجمع، إلا وسيلة للسيطرة الثقافية والفكرية، ومن ثَمّ ابتلاع السوق العالمي وفرض الهيمنة الحضارية والثقافية، ومن فصول هذه السياسة الخَرقاء الخاصة بالشرق الأوسط، ذاك التدخل السافر في فرض نوعية البرامج التعليمية والثقافية، ومناهج التعليم التي يجب أن تُلقّن للأجيال، والتي تخدم مصالح الاستعمار الغربي وتؤسّس للتعايش مع الكيان الصهيوني وأهدافه التوسّعية، وتُفضي إلى خلق عناصر خانعة مستسلمة لا تقوى على الرفض والممانعة.

إذن، ليست الصور الكاريكاتورية أول ولا آخر الحروب على المسلمين والإسلام، إنها حرب ذات أبعاد مختلفة لهدف واحد.

وأظن أن هذه الحرب المدمرة لن تتوقف ما دمنا ممزقين مشتّتين، يُواجه بعضنا البعض الآخر، ونضطر لأن نستورد من العالم الغربي كل شيء تقريبًا، من حبّة الشوكولا إلى الطائرة، وطالما أننا نُنجب أنظمة سياسية هرمة تُساير الدول الاستعمارية وتتزّلف إليها حمايةً لمراكزها وعروشها، ولا تجرؤ على الجهر بمطالبها وحقوقها العادلة إلا بالتمني الخجول، هذا إن حدث.

وإننا نتحمّل جميعنا جزءاً كبيراً من المسؤولية عمّا يتعرض له رسولنا الكريم (صلى الله عليه وآله) وإسلامنا الحنيف على أيدي الحاقدين، علمًا أننا لا نُنكر وعي وإدراك وسَهَر كثير من المسؤولين الدينيين والسياسيين في لبنان وغيره من دول العالم العربي، وجهرهم علانيةً بآرائهم وتطلّعاتهم، ومواعظهم وإرشاداتهم ونقدهم البنّاء على أمل المساهمة في الوصول إلى ما يرضي الله ورسوله.

يتبع =

---

[i] - تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم حسن: ج1 ص75.

[ii] - سورة الحجر الآية 9.

[iii] - سيرة ابن هشام: ج1 ص 356؛ وتاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم حسن: ج2 ص88-89.

[iv] - الشيخ خليل ياسين، محمد عند علماء الغرب، ص78 إلى ص84.

.

تتمة مقال = الإسلام في مواجهة التحديات

لماذا وكيف بدأت القضية؟

بدأت رحلة البحث عن صور للرسول الأكرم محمد (صلى الله عليه وآله) من خلال حادث عفويّ هدفه إيجاد صورة للنبي محمد (صلى الله عليه وآله) لكتابٍ للأطفال في الدانمارك، ولما لم يُعثر على صورة تمّ الاتصال بجمعية الفنّانين التشكيليين، وعُثر هناك على من كان مستعدًّا لتنفيذ هذا العمل، ولم يكن هذا السلوك يحمل في بداية الأمر أيّة إساءة للرسول، هذا الجزء الهامشي أثار الفضول في عقول القائمين على صحيفة (يولاندس يوستن) الدانماركية، ودقّ إشارات التنبيه فيهم، فاغتنم محرّر الصفحة الثقافية الأمر، ودعا عددًا من الرسّامين إلى "وليمة" رسم الرسول محمد (صلى الله عليه وآله) فاستجابوا له، وحصل على اثنتي عشرة صورة، وما لبث أن نَشَرَها بتأييد من رئيس تحرير الصحيفة (كارستن يوستن)، بعد أن رفض ثمانيةٌ وعشرون فنّانًا الاستجابة لفكرة وضع الرسوم عن نبي لدين معروف بالعنف كما يقول مناصرو "يوستن"، تلك هي البداية.

ولم تكن الصور مجرد رسوم للزينة أو للأطفال، إنما كانت صورًا مُشينة، ذات غايات وأهداف محدّدة، ترمي إلى تحقير النبي (صلى الله عليه وآله) وإشاعة ما يسمّيه الكتّاب الإسكندنافيّون: بمرض الذعر من المسلمين ([i]).

لكن ما هو تبرير رئيس تحرير "يوستن"

يقول "يوستن": إن هدفه لم يكن النبيّ محمدًا نفسه، بقدر ما كان يريد أن يخلق نقاشًا حول الرّقابة وحرّية التعبير، كي يُثبت عمليًا أن الجماعات التي تؤمن بهذا الدين مُعادية لحريّة التعبير، وهو يعني أنه قام باستفزازهم كي يُثبت أنهم مُعادون للديمقراطية، وهذا عمل شرّير مدروس، يدلّ على نيّة خبيثة وفيه قدر كبير من سوء القصد والرغبة في التحريض.

حرّية التعبير

إن الديمقراطية التي تتباهى بها الصحيفة الدانماركية وتنسبها إلى العالم الغربي ما هي إلا محض افتراء، ونحن نراها كيف تُذبح في كل مكان لا يُدين بالطاعة للحلف الأمريكي الأوروبي، فالديمقراطية الشعبية النقيّة التي حملت "تشافيز" إلى السلطة في فنزويلا هي ديكتاتورية برأي هذا الحلف الشيطاني، والديمقراطية التي نقلت حماس إلى الحكم في فلسطين هي ديكتاتورية بنظرهم أيضًا، وهكذا تقيس الدول المستبدّة الأشياء بمدى ملاءمتها لقضاياها وأطماعها.

ولم يكن طُغاة العالم ليعترفوا بحقّ الشعوب في تقرير مصيرها أصلاً ولم يؤمنوا يومًا بالديمقراطية والحرّية ليتشدّقوا بحرية التعبير التي يفسّرونها على مزاجهم الخاص.

والإسلام العظيم كان أوّل الداعين إلى الحرّية بكل أشكالها، وفي طليعتها حرية التعبير وإبداء الرأي وحرية التصرّف ضمن الحدود التي لا تمسّ مشاعر الآخرين.

وإذا كانت الصحافة الدانماركية تستند إلى حرّية التعبير في ما قامت به، فهي واهمة، لأن ما فعلته ومن تَبعها من صحفٍ في العالم يشكّل مخالفة صريحة للقانون الدانمركي نفسه، خاصة في مادتيه 77 و256ب.

جاء في المادة 77 من الدستور الدانمركي: "كلُّ فرد له حق التعبير كتابيًا وشفاهيًا وحق إظهار أفكاره، ولكن بالخضوع أمام مسؤولية القانون".

وجاء في المادة 120: "الذي يقوم بالسخرية العلنية أو يُدنّس في هذه البلاد (الدانمارك) مُعْتَقَدًا لجماعةٍ دينية شرعية، أو مُعْتَقَدًا إلهيًا يُعاقَب بالغرامة أو بالحبس لمدة أربعة أشهر".

أما المادة 256 ب فتقول: "الذي يقوم علنًا أو عمداً بنشر تصريحات أو أخبار تتضمّن تهديداً أو إهانة بسبب الجنس، لون البشرة، الجنسية، أو الأصل العرقي، أو المُعتقد، يُعاقب بالغرامة أو بالسجن لمدةٍ أقصاها سنتان".

وللتأكيد على حرية التعبير التي يزعمونها، قامت صحيفة "مغازيت" الدانماركية المسيحية في العاشر من كانون الثاني 2006م، أي قبل الصحف الأوروبية بعدة أسابيع بإعادة نشر الصور، معلّلة ذلك على لسان رئيس تحريرها "سلبك" بأن التهديد الإسلامي تهديدٌ لحرية التعبير، الحرية مهدّدة من قبل دين معروف باستخدامه للعنف([ii]).

وإمعاناً في هذا الهذَيان نشرت صحيفة (ديمقراطيو السويد) على لسان رئيس تحريرها "ريكارد يومسهوف" أسباب تأييدهم لنشر الصور قائلةً: (لهذا السبب قرّرنا أن نمشي في إثر "يولاندس يوستن"، لنُظهر أن حرية التعبير في السويد تقف فوق أي اعتبار للمسلمين في ما يتعلق بنشر صور محمد)، والمعروف أن مجموعة "ديمقراطيو السويد" هي التسمية المحسّنة لحزب النازيّين الجُدد السويدي([iii]).

بهذه الطريقة يفكّر هؤلاء بمسألة حرية التعبير، مُعلنين صراحةً أنه لا يهمّهم مشاعر المسلمين وأن رغبتهم في نشر الصور هي فوق كل اعتبار، وهذا يعتبر ضربة ماحقة لقانون حرية التعبير، وكأنّ مقياس هذه الحرية لديهم هي إشاعة الكراهية والحقد بين بني البشر، وأن مشاعر أكثر من مليار ونصف مليار من المسلمين على وجه الكرة الأرضية ليست عندهم في الحُسبان، أما مسألة الاعتذار فلم تكن جدّية، ففي كلمة رئيس تحرير الصحيفة الدانماركية التي نشرت الصور، والتي قدّم فيها اعتذاره للمسلمين قال: (إن نشر الصور لا يتعارض مع القانون الدانمركي، ولكن لا يمكن إنكار أن ذلك تسبّب في انتهاك مشاعر العديد من المسلمين)، لكنه عاد - وبعد يوم واحد فقط - وطلب من صحيفة "داغنس نبهيز" السويدية أن تتضامن معه في إعادة نشر الصور على صفحاتها معربًا عن سعادته لأن بعض الصحف الأوروبية فعلت ذلك، فأيّة عدالة هذه التي يتحدثون عنها! أيّة حريةِ تعبيرٍ يتشدّقون بها! وأي اعتذار قدّمه هذا الصحافي المتعصّب، خاصة بعد أن تابع يقول: "إنه لأمر رائع أن تلحق بنا صحف أخرى، كلما كثر عددهم ازداد الضغط على الأصوليين الذين يخنقون حرّية التعبير"([iv]).

حرّية التعبير التي دمّروها في فيتنام والجزائر وفلسطين وفنزويلا ودول أفريقيا السوداء، وفي تشيلي وغيرها، ولم يقم نظامٌ بالاقتراع الشعبي ولم يكن لأميركا وحلفائها فيه نصيب إلا اعتبرته خروجًا على الديمقراطية ولاحَقَته بشتّى الوسائل.

أبعاد القضية

إن كل ما جرى وما يجري، لا يمكن فصله عن بُعده السياسي، من حيث أن الرسوم الكاريكاتورية نُشرت في جرائد سياسية، ثم استغلّت أنظمة غربية هذا الحدث لإشاعته وترويجه في كل مكان، والأدهى من ذلك أن هذه الرسوم نُشرت في لحظات توتّر وجدال سياسي عميق بين الإسلام والغرب، وهذا وحده كما قال خالد الصاغيّة في جريدة السفير 11/2/2006م، يَفقد أي براءة يمكن أن تدّعيها تلك الدول، ولقد دخلت الرسوم شاءت أم أبت، في الصراع السياسي الدائر في الوقت الحاضر.

وقد أجمع المعلّقون الأتراك، ولا سيّما الإسلاميّون -المعتدلون منهم والأصوليون- على خطورة ما حدث في الدانمارك وإيطاليا، فقد انتقد "علي بيرم أوغلو" - وهو مفكّر ومحلّل سياسي تركي - ازدواجية الغرب، معتبرًا أن التطوّرات هي ثقافية، إنها حرب عالمية بين الغرب والشرق حول الدين، ثم يقول "بيرم": إن الغرب يبذر في كل يوم بذور الكراهية عبر آلية تحقير وتحريض علنية، ويذكّر الكاتب بقرارٍ للمملكة الأوروبية لحقوق الإنسان يؤيد عام 2006 قرارًا قضائيًا بمنع توزيع فيلم يتضمّن شتائم ضدّ الدين([v]).

وتساءل الكاتب "أوجافتان" - وهو صحفي ومفكّر تركي -: "هل أصبح شتم القيم المقدّسة جزءًا من الحريات الديمقراطية، أي هل نستطيع اليوم كمسلمين أن نشتم الدانماركيين والألمان والفرنسيين وبيارقهم ورموزهم"، ثم قال: "إن أوروبا لا تفهم أو لا تريد أن تفهم أن هذا ليس حرية صحافة بل حرية سباب لقيم مقدّسة.

ويقول "قره علي" - وهو أديب وصحفي تركي -: " إن استراتيجيات أميركا وأوروبا الآتية ترتكز على صدام الحضارات الذي هو مشروع غربي، إن خطاب " الخطر الإسلامي" لم يقتصر فقط على الاستراتيجيات العسكرية - الآنية للغرب - بل تحوّل إلى قناعة وممارسة سائدة في حياته اليومية ([vi]).

كل ما ذكرناه، يؤكّد على المنحى السياسي لقضية الرسوم، وما جرى في العراق من إقدام جماعات مدفوعة من المحتلّ الأميركي على تفجير قبّة الإمامين الهادي والعسكري (عليهما السلام) يكرّس التأكيد ويقوّيه، ذلك أن ما تحاول السياسة الأميركية ومن معها فعله، هو إحداث شرخ بين السنة والشيعة، وصولاً إلى حرب طائفية مدمّرة تُفضي إلى تقسيم العراق إلى دويلات يسهل إحكام السيطرة عليها ووضعها تحت السّنْدان الأميركي.

وعلى هذا المستوى نفسه تعمل في التعاطي مع الملفين السوري واللبناني، وقد بدأ العمل بذلك منذ سنوات، ووصل إلى الذروة في حادثة اغتيال الرئيس رفيق الحريري، حيث وظّفت أميركا ومعها إسرائيل هذا الاغتيال لضرب الجبهتين السورية واللبنانية، عبر تشجيع حلفائها القدماء والجدد، ودفعهم إلى التمرّد، وخلق حالة طائفية تؤدّي - لا سمح الله - إن حدثت إلى تقسيم كل من سوريا ولبنان، مما يريح الصهيونية، في الوقت الذي تكون فيه أميركا مشغولة في معالجة الملف النووي الإيراني لإبعاده عن المواجهة، وتخليص إسرائيل من كل ما تعتقد أنه يشكّل خطرًا على وجودها.

إلا أن هذا المشروع يصطدم بعقبات كثيرة، ودونه مطبّات وحواجز متعدّدة، ليس من السهل تجاوزها أو تنحيتها عن مسار الحياة السياسية، فالكراهية نحو المسؤولين الأميركيين تزداد يومًا بعد يوم، خاصة أن أميركا سبقت الأوروبيين في المساس بمشاعر المسلمين في العالم، وما زلنا نذكر واقعة تدنيس القرآن الكريم التي أقدم عليها جنود أميركيّون في معتقل غوانتانامو، والتي فضحتها صحيفة النيوزويك في أيار من العام 2005م.

يتبع =

---

[i] - سلام عبّود، نشر صور الرسول، السفير 11/2/2006م.

[ii] - سلام عبود – السفير- ص19- تاريخ 11/2/2006م.

[iii] - سلام عبود جريدة السفير 11 شباط 2006.

[iv] - المصدر نفسه ص19.

[v] - د. محمد نور الدين، جريدة السفير، ص15، 4/2/2002م.

[vi] - المصدر نفسه، تركيا، معايير كوبنهاغن للسباب - السفير، ص15، 4/2/2002م.

.

تتمة مقال = الإسلام في مواجهة التحديات

ما الحل أو كيف العمل

في هذا الجوّ المحموم الذي تسبّبت به الصحافة الدانمركية، وعلى إثر التظاهرات العارمة التي عمّت العالمين العربي والإسلامي، وبعد هذا السّجال الصحافي الحادّ، وتعميم الصور في وسائل الإعلام الغربية، وعلى شاشات الانترنت، وبعد التصريحات الهدّامة التي أدلى بها مسؤولون أميركيّون وأوربّيون، وبعد محاولات ضخّ الأحقاد في نفوس الشعوب الغربية ضدّ العالم الإسلامي.

نتساءل! كيف يمكن الوقوف في وجه هذا التحدّي السافر، ومواجهته، علمًا أنه لم يتوقّف منذ قرون، وقد سبق وذكرت أن أول فصول هذا التحدّي بدأت إرهاصاته الأولى في حياة الرسول (صلى الله عليه وآله)، أما آخر هذه الهدايا الفتّاكة التي قُدّمت علاوة على الصور الكاريكاتورية، فمنها تصريح رئيس تحرير صحيفة "يولاندس يوستن" حيث قال: إن اندماج المهاجرين ربما يكون مشروعًا مستحيلاً، هناك هوّة بين الإنسان الغربي والعالم الإسلامي.

حتى إن زعيمة حزب الشعب الدانماركي "بياشيشبارد" لا تنفك تحذّر من خطر المسلمين، وتعتبرهم، بمن فيهم الذين حملوا الجنسية الدانماركية، خونة([1]).

وقبل أشهر صدرت دعوات في أستراليا لطرد الشرقيين - ومعظمهم من المسلمين - من البلاد، وحصلت أعمال شغب وتعدٍّ جنونية ضدّ المصالح الإسلامية هناك ودمّرت فيها محالّ ومتاجر، وذهب ضحيتها كثيرون.

حوادث لا تنتهي، وتحتاج إلى يقظة في الضمير، وعودة إلى التبصّر بجوهر الأديان السماوية، وسلوك أنبياء الله المكرّمين في هدايتهم لبني البشر.

إننا بالإضافة إلى ضرورة تربية أجيال تشعر بالمسؤولية، محصّنة أخلاقيًا وإيمانيًا، تعالج الصّعاب بعقول راجحة، وآراء سديدة، ونوايا طيبة انسجامًا مع تعاليم الأديان السماوية وفي طليعتها الإسلام.

وعلاوة على دور روّاد الفكر والدين والتربية بالتوجيه والوعظ والتلاقي عبر الندوات والدعوات والمحاضرات الهادفة.

علاوة على أهمية هذه المبادرات، فإن الرائد الأول في هذا المضمار هو الرسول (صلى الله عليه وآله) الذي كان يقابل الإساءة بالحسنة، ويغفر حتى لألدّ أعدائه، كما جرى له مع اليهودي الذي كان يرمي القاذورات أمام داره، ويرشُقه بالحصى على الطريق، وعندما مرض اليهودي عادَه الرسول (صلى الله عليه وآله)، فبُهِت اليهودي وأسلم،

لقد رأى نُبل الإسلام بأمّ عينيه فآمن عن يقين.

وخلال نبوّته (صلى الله عليه وآله) كان مثال المُصلح والمُوجّه والحكيم في تصدّيه لكل المعضلات، وهذا هو السبب في سرعة انتشار الإسلام.

عندما استقر الرسول (صلى الله عليه وآله) في المدينة بعد هجرته إليها، كان أوّل عمل قام به أن ألّف وآخى بين الناس، وعقد حِلفًا بين المسلمين من مهاجرين وأنصار، وبين اليهود، جاء فيه: (إن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس، وإنه من تبعنا من يهود فإنّ له النصر والأسوة غير مظلومين ولا مُتَنَاصَر عليهم)([2]).

ومن المعروف أن الرسول وجد في المدينة لدى مَقْدَمه إليها طوائف من أهل الكتاب، فكتب بينه وبينهم عهدًا وميثاقًا، وجعل شِعاره في ذلك: **{لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}**([3]).

وعندما رأى الرسول ما أصاب أصحابه من البلاء على يد المشركين في مطلع الدعوة، قال لهم: اخرجوا إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه.

ولما حاول موفَدَا قريش تأليب النجاشي على أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله) والوشاية بهم، ردّهما الملك الحبشي، بعد أن سمع من جعفر بن أبي طالب ما يسحر الألباب، وذلك عندما قرأ عليه صدرًا من سورة مريم **{كهيعص}**.

بكى النجاشي واخضلّت لحيته وبكى معه أساقفته، ثم قال معقّبًا على ما سمعه: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا والله لا أسلمهم إليكما أبدًا، ثم خاطب المهاجرين قائلاً: اذهبوا فأنتم آمنون في أرضي([4]).

لن أزيد، فتاريخ الرسول مليء بهذه المناقب الحميدة التي أرسى فيها روح التعايش والحبّ بين الناس، وعلى هَدْي هذه القيم يجب أن نسير ونتبّع، مسلمين ومسيحيين، تعاليم السماء التي حملها محمد (صلى الله عليه وآله) وعيسى (عليه السلام)، هداية لبني البشر وسعيًا لتلاقيهم وتواصلهم في سبيل الأجمل والأنقى والأفضل.

وأنتهز عرض هذه القيم الرسولية الإسلامية لأذكّر بها أصحاب بعض الصحف العربية الإسلامية، خاصة في الجزائر والأردن واليمن وغيرها، والذين أقدموا على إعادة نشر الصور الكاريكاتورية تباهيًا بأسبقية النشر وطمعًا بالكسب الماديّ دونما نظر إلى ما يجرّه تصرّفهم من إساءة وتجريح ينطلقان من الذات، مما يدل على صوابية المثل القائل: من بيت أبيك ضُربتَ، ولأقول لهم، لقد علّمنا الإسلام الوفاء والإباء وليس التنكّر والطعن في الصميم.

وقد أعطى تصرّف الصحافيين العرب الفرصة للأوروبيين للثناء على ما فعلوه، كما جاء في البيان الأوروبي الذي صدر بهذا الشأن.

وهذا يدل على أن كثيرًا منّا بحاجة إلى تدريبٍ نفسي قاسٍ على أهمية تحصين الذات والقيم أمام النزعات الخارجية التي ما زالت تُشكّل عند البعض مثار جذبٍ واهتمام.

ومن الباب نفسه الذي انطلقت منه أصوات النّشاز والشتيمة بحقّ الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) والإسلام، انطلقت أصوات الوفاء والتقدير والإجلال، على ألسنة مئات الشعراء والأدباء والفلاسفة والمفكّرين، وجميعها صدرت عن إيمان راسخ وقناعة تامّة بشخصية الرسول وأهمية دوره ورسالته، وكأن هؤلاء يردّون على كل من تسوّل له نفسه المساس بقدسية الرسالة المحمدية، وأن الحلّ الساطع والسلم البشري لا يتمّان إلا باتباع قيم الإسلام العظيم وتعاليم المسيحية، إنهما دينا الحقّ والنور، والملاذ الآمن من كل الشرور.

يردّ عليهم شاعر ألمانيا العظيم "جوته"، الذي لم يكن يعترض إذا دَعَوه مسلمًا، قال ما ترجمته:

من حماقة الإنسان في دنياه
أن يتعصّب كل منّا لما يراه
وإذا كان الإسلام معناه أن لله التسليم
فعلى الإسلام نحيا ونموت أجمعين

ومن قصيدة أخرى له، يظهر "جوته" رغبته في الحج إلى مكة لكي يستروح نسيم الإباء:

إلى هنالك حيث الطهر والحقّ والصفاء
أودُّ أن أقود الأجناس البشرية
وأَنْفُذَ بها في أعماق الأصل السحيق
حين كانت تتلقّى من لدن الربّ

وهي السماء بِلُغَة الأرض([5]).

ويقول الأديب الفرنسي "شانليه":

"إن رسالة محمد، هي أفضل الرسالات السماوية التي جاء بها الأنبياء قبله، لأنها جاءت إلى الشعوب نقيّة من كل عيب، وخالية من كل نقص، بل إنه يوجد فيها من التعاليم القيّمة ما لا يوجد في غيرها من الديانات".

ويعتزّ الفيلسوف الإنكليزي الساخر "برنارد شو" بالدين الإسلامي والرسول العظيم، حيث رأى أن العالم أحوج ما يكون إلى رجل في تفكير محمّد، هذا النبي الذي وضع دينه دائمًا موضع الاحترام والإجلال، فإنه أقوى دين على هضم جميع المدنيات، خالدًا خلود الأبد، وإني أرى كثيرًا من بني قومي قد دخلوا هذا الدين على بيّنةٍ، وسيجد هذا مجاله الفسيح في هذه القارّة - يعني أوروبا-([6]).

ويصرّح المجري الدكتور إيليوس جرمانوس المولود سنة 1884م، وهو مستشرق هنغاري جال في البلاد الإسلامية، وخبُر الديانة الإسلامية، فأسلم وحجّ إلى مكة، له كتاب "الله أكبر" ومما جاء فيه:

"إن تعاليم القرآن هي أوامر الله، وهي مرشد أبديٌّ للبشر، وإن محمدًا لأعظم مُصلح ثوري عرفه التاريخ، مؤيدٌ بوحي من عند الله"([7]).

ومما أدلى به المستشرق الفرنسي "إدوار مونته" (1856 - 1927م) من كتاب له بعنوان: حاضر الإسلام ومستقبله:

"يجب أن يُعَدّ محمد في صفّ أعاظم المحسنين إلى البشرية، إن الانقياد لإرادة الله تتجلّى في محمد والقرآن، بقوّة لا تعرفها النصرانية"([8]).

عسى أن تجد أقوال هؤلاء وغيرهم آذانًا صاغية وقلوبًا بيضاء عند كلّ من تسوّل له نفسه التطاول على نبيّ الرحمة، والدين الذي أتى به خيرًا وهدى للعالمين، وليدركوا أن الإسلام لن يمسّه أحد، ولن تقوى تجنيّات من هنا وهناك على النيل من مقامه العظيم.

انتهى المقال

---

[1] - سلام عبود، السفير، ص19، تاريخ 11/2/2006م.

[2] - تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسن، ج1، ص102.

[3] - سورة البقرة: من الآية256.

[4] - نفس المصدر السابق ص88.

[5] - عالم المعرفة، جوته والعالم العربي، ترجمة د. عبد الغفار مكاوي، ص237، عدد 194، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، شباط 1995م.

[6] - الشيخ خليل ياسين، محمد عند علماء الغرب، دار الأندلس، بيروت، ط1، 1967م ص132الى ص135.

[7] - المصدر السابق نفسه، ص151.

[8] - المصدر السابق نفسه ص122.

المراجع

- جريدة السفير، عدد 10317، تاريخ 11/2/2006م

- جريدة السفير، عدد 10312، تاريخ 4/2/2006م

- سيرة ابن هشام، جزء أول، القاهرة، 1336-1337هـ

- تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم حسن، الجزء الأول والثاني، مكتبة النهضة المصرية، ط7، 1964م.

- محمد عند علماء الغرب، الشيخ خليل ياسين، دار الأندلس، ط1، 1967م

- عالم المعرفة، جوته والعالم العربي، ترجمة د. عبد الغفار مكاوي، عدد 194، شباط 1995م، الكويت.

الهوامش

* أستاذ محاضر في كلية الآداب في الجامعة اللبنانية في صيدا.

أبو طالب: الحامي والكفيل

د. محمد كامل سليمان

أبو طالب (عليه السلام).. الحامي والكفيل

د.محمّد كامل سليمان*

لما ظهرت أمارة وفاة عبد المطلب جدّ الرسول (صلى الله عليه وآله)، عهد إلى أبي طالب بكفالة النبي (صلى الله عليه وآله)، وأوصاه به قائلاً له: (إني قد عرفت ديانتك وأمانتك فكن لمحمّد كما كنتُ له)([1]).

وهكذا كان أبو طالب فأحبّه وآثره بالنفقة والكسوة على نفسه وعلى جميع أهله، حتى غدت كل نبضة يختلج بها شريانه نفحةً هنيّةً تترنّم باسم محمّد، إذا حضر أو غاب، وإذا نام أو استيقظ، وصار محمّد أقرب إلى نفس أبي طالب من نفسه، حتى راح يرى أن مهمّته في هذا الوجود - مع ما كان له من مهام الرياسة والسيادة - أن يقوم على تربية ابن أخيه ويحميه شرّ الغوائل.

وحتى زوجه فاطمة بنت أسد (رحمها الله)، أمّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) كانت تسابق زوجها وتنافسه في الاحتفاء بمحمّد والحرص على إكرامه وإعزازه، حتى كانت تؤخّر الطعام حتى يحضر [ابنها محمّد] كما كان يحلو لها أن تدعوه، وتدهن رأسه بالطيب قبل أولادها أو تدّخره له وحده إذا لم يكن من الطيب إلا ما يكفيه.

والواقع أننا لا نستطيع بهذه العجالة تصوير حبّ أبي طالب وحدبِه الشديد على النبيّ([2])، لذلك سنحاول هنا أن نشير إلى بعضٍ من تلك المواقف التّي يتجلّى فيها إيمان أبي طالب وحرصه على ابن أخيه حتى يصدع بأمر ربّه وينشر شريعة السّماء السّهلة السمحاء.

رعايته في طفولته:

لقد كان أبو طالب، إيمانًا منه برسالة محمّد التّي سيصدع بها يوم يبلغ الكتاب أجله، لا يفارق ابن أخيه, فأخذه معه إلى الشام وهو ابن عشر سنين ليبقى قرير العين قرب عمّه لا يجد الغمّ إلى نفسه سبيلاً.

مع بحيرة الراهب:

ولكي نقف على مدى الرّعاية التّي كان يشمل بها ابن أخيه, يجدر بنا أن نشير إلى الرّحلة الثانية التي قام بها أبو طالب على رأس تجارة كبيرة إلى الشام، كان قد أوقر الإبل، حتى إذا التقى [بحيرة] الراهب في بادية الشام، ورأى هذا الأخير الغمامة التي كانت تظلّل النبي (صلى الله عليه وآله)، أسرع إلى أبي طالب وخوّفه على ابن أخيه،

وأخبره بما ينتظره من النبوّة والرسالة التي ستُخرِج الناس من الظلمات إلى النور، عندها قفل أبو طالب راجعًا مفضّلاً سلامة ابن أخيه على كل الغُنم مهما تعاظم.

استسقاء أبي طالب بمحمد (صلى الله عليه وآله)([3]):

أقحط أهل البادية وأهل مكة، من احتباس المطر فقال قائل منهم: (اعتمدوا اللات والعزّى)، وقال آخر: (اعتمدوا مناة الثالثة الأخرى).

فقام شيخ وسيم حسن الرأي يقول لهم: (أنّى تؤفكون، وفيكم بقية إبراهيم وسلالة إسماعيل).

فقاموا جميعًا إلى أبي طالب يستغيثون ويستنجدون: يا أبا طالب، أقحط الوادي، وأجدب العيال، فهلمّ فاستسق.

فخرج أبو طالب هو وشيوخ قومه، واخرج محمدًا معه، وكان بعدُ طفلاً، حتى إذا كانوا في الكعبة، أسند ظهره بالكعبة، ولاذ بإصبعه كالضارع المستغيث، وما في السماء قزعة من سحاب، فأقبل السحاب من هاهنا وهاهنا، فجلجل الرعد واستهل المطر كأفواه القرب، فدمعت عينا أبي طالب والتفت إلى ابن أخيه منشدًا الناس([4]):

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه	ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاّك من آل هاشم	فهم عنده في نعمة وفواضل
وميزان صدق لا يخيس شعيرةً	ووزان صدق وزنه غير غائل
ألم تعلموا أن ابننا لا مكذب	لدنيا ولا يعبا بقول الأباطل
لعمري لقد كلفت وجدا بأحمد	وأحببته حبّ الحبيب المواصل
وجدت بنفسي دونه فحميته	ودافعتُ عنه بالذرى والكواهل
فلا زال للدنيا جمالاً لأهلها	وشينًا لمن عادى وزين المحافل
وأيّده رب العباد بنصره	وأظهر دينًا حقّه غير باطل

خطبة أبي طالب خديجة (عليها السلام) **لمحمد** (صلى الله عليه وآله)**وأبعادها:**

(الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وجعل لنا بلدًا حرامًا وبيتا محجوجًا - ورُوي محجوبًا - وجعلنا الحكّام على الناس، ثم إن محمد بن عبد الله أخي من لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه برًا وفضلاً وحزمًا وعقلاً ورأيًا ونبلاً، وإن كان في المال قُلّ فإنما المال ظلّ زائل وعارية مسترجعة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك، وما أحببتم من الصداق فعليّ، وله والله بعدُ نبأ شائع وخطب جليل)([5]).

هذه الكلمات التي ردّدها أبو طالب رحمه الله يوم خطب خديجة لمحمد (صلى الله عليه وآله)، تجعلنا نقف على المنزلة السامية لمحمّد (صلى الله عليه وآله) من نفس عمّه، فهو لا يوزن بأحد إلا رجح به نبلاً وفضلاً وعقلاً.

ثم انظر يرعاك الله إلى هذه الرؤية العميقة، وإلى هذا اليقين من المستقبل وهذا الإيمان بابن أخيه حتى قبل أن يصدع بدعوته.

ثم انظر إلى صيغة القَسم التي تنمّ عن الإيمان إذ أقسم بالله مراهنًا على مستقبل ابن أخيه ومنبّهًا في روع الحاضرين إلى ما ينتظره من النبوّة والرسالة.

ومن الجدير أن ننوّه به، أن أبا طالب عِبْر أشعاره وخطبه، حتى قبل الإسلام ما كان يقسم بغير الله، أو الرب أو الإله.

في حين أن مثل أبي سفيان ممن ادّعوا الإسلام ما حلفوا بالله حتى بعد وفاة الرسول، وإنما حثّ قومه على تلقّف الزعامة بعد وفاة الرسول قائلاً لأبنائه: (يا بني أميّة، تلقّفوها تلقّف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان ما من عذاب ولا حساب، ولا جنة ولا نار، ولا بعث ولا قيامة)([6]).

بينما نجد أن أبا طالب ما حلف حتى قبل إسلامه لا باللات ولا بالعزّى كما يفعل القرشيون، ولا عُرف عنه أنه جلس إلى صنم من الأصنام التي كان يجلس إليها القرشيون.

أليس هذا دليلاً على مدى إيمان الرجل بالإله الذي دعا إليه محمّد (صلى الله عليه وآله) والذي أنشئ على الإيمان به حتى قبل صدوع النبي بالرسالة...

يتبع =

---

[1]- الخرائج والجرائح، الراوندي، مؤسسة الإمام المهدي، قم: 1/138؛ وعنه بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، ط2: 17/363 حديث 1، و35/83، حديث 26؛ الاحتجاج، الطبرسي، دار النعمان، النجف، 1966: 1/342.

[2]- لمزيد من التفاصيل يراجع: بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، ط2: ج35،

[3] - راجع: مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، المطبعة الحيدرية، النجف، ط 1376: 1/119. بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، ط2: ج 18 ص3.

[4] - بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، ط2: 35/166.

[5]- بحار الأنوار: 35/158؛ ورواه غيره باختلاف في لفظه، راجع مثلا: تاريخ ابن خلدون، دار إحياء التراث، ط4: ق2 ج2 ص5؛ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، منشورات المرعشي، قم (طبعة دار إحياء التراث، بيروت) الطبعة الثانية:14/70.

[6] - شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 9/53.

.

تتمة مقال = بو طالب (ع) الحامي والكفيل

إيمان أبي طالب:

ثم ألا ترى برفضه لتقاليد الجاهليين، وإنكاره لتكالبهم الشهواني على المنافع المادية بأي ثمن، أفلا ترى فيها دعائم في بنايته الإيمانية التوحيدية...

وإلا فكيف نفسر الشروط الإيمانية الصارمة التي فرضها حين عزمت قريش على إصلاح جدران الكعبة التي هدمها السيل بعد عشر سنين من زواج محمّد بخديجة، فقد شرط أبو طالب أن لا ينفق فيه إلا من طيب المكاسب، وأن لا يدخل في بنائها مال من ظلم ولا عدوان([1]).

أليس في هذه الشروط التي كانت فيما بعد من صلب العقيدة الإسلامية التي فرضت مثل هذه الشروط في كل بناء أسس على تقوى، أليس هذا دليلاً على مدى تغلغل العقيدة الإيمانية في جبلّة هذا العظيم، ونشأته على تبنّيها حتى قبل أن يعلن النبي (صلى الله عليه وآله) تعاليم الإسلام...

وهكذا - كما لاحظنا - فقد جاءت بأبي طالب لرياسة الناس جميعًا في مكة سيادة طريفة من الشجاعة والعفّة والسخاء والسن والتجارب والحكمة وحسن البيان، فقد نُسجت بأخلاقه الغرّ كل أكرومة، فقد اختاره الله رجلاً أبلج، متين الكاهل، شغب الشكيمة، لا يميل به الهوى، ولا تدنو من خلقه مذمّة ولا ضعف، تفزع إليه قريش وأهل البادية في نوائبهم، فيخفّ لهم وينجدهم.

فورث صفات أبيه عبد المطلب من حلم وجود وحكمة فأحلّ ما أحلّ، وحرّم ما حرّم، فكان يأمر أولاده بترك الظلم والبغي، ويحثهم على مكارم الأخلاق، وينهاهم عن دنيئات الأمور، وكان يعتقد بالآخرة، ورفض عبادة الأصنام، ووحّد الله سبحانه، وتؤثر عنه سنن جاء القرآن بأكثرها، وجاءت بها السنة منها الوفاء بالنذر، والمنع من نكاح المحارم، وقطع يد السارق، والنهي عن قتل الموؤدة، وتحريم الخمر، والزنا، وأن لا يطوف بالبيت عريان([2]).

هكذا كان أبو طالب قبل الإسلام حتى غدا محتذىً ومقتدىً، ولا أدلّ على ذلك من جواب أكثم بن صيفي، حكيم العرب، حين سئل: (ممن تعلّمت الحكمة والرياسة والحلم والسيادة؟

فقال: من حليف الحلم والأدب، سيد العجم والعرب، أبي طالب بن عبد المطلب)([3])..

حتى معاوية بن أبي سفيان الذي عُرف بعدائه للطالبيين، استشهد بحلم أبي طالب وجعله هاديًا له يوم جرى نزاع ومشاحنة بينه وبين صعصعة وابن الكوّاء، فقال معاوية: لولا أني أرجع إلى قول أبي طالب حيث يقول: (قابلت جهلهم حلمًا ومغفرة... والعفو عن قدرة ضرب من الكرم!.. لقتلتكم)([4]).

أبو طالب والبعثة النبويّة:

لما بُعث النبي (صلى الله عليه وآله)، وصدع بالأمر امتثالاً لقوله تعالى **{فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ}**([5]) ونزل قوله تعالى **{إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ}**([6])، أجمعت قريش على خلافه، وكادت له المكائد، وتربّصت به الغوائل، وقعدت له كل سبيل، فانبرى أبو طالب العم الحادب، يدعم موقف ابن أخيه ويهدّدهم.

عندها بيّتت قريش نيّتها على قتل محمّد بيد مجرم غريب، حتى لا تؤخذ بتِرَته عشيرةٌ ولا بطنٌ من بطون قريش.

ترامى إلى أبي طالب ما بيّتته قريش، فأنشأ يرقب محمدًا ولا يدع يومًا يمرّ دون أن يراه في كل صباح ومساء.

ومرّت ليلة غاب فيها محمّد، وطلبه أبو طالب فلم يجده، فتوالت على خاطره الظنون والهواجس خشية أن يكون قد عرض لمحمد أحد بسوء، (فجمع أبو طالب في بيته سبعين رجلاً قد اختارهم من بني هاشم، ثم قال: ليأخذ كل منكم حديدة صارمة، ثم ليتبعني إذا دخلت المسجد، فلينظر كل فتى منكم فليجلس إلى عظيم من عظمائهم، فيهم ابن الحنظلية - أبو جهل - فإنه لم يغب عن شرّ إن كان محمّد قد قتل)([7]).

وبينا أبو طالب وقومه يعدّون لما همّوا به، إذ أقبل زيد بن الحارثة وكان قد رأى الرسول (صلى الله عليه وآله) عند الصفا، فقفل راجعًا إلى عند الرسول وأخبره بقلق عمه، فقدم مسرعًا، فهشّ العم لاستقباله، وراح يسأله: (يا ابن أخي أين كنت؟ أكنت في خير، قال: نعم)([8])..

ثم إن أبا طالب غدا على النبي فأخذ بيده ووقف به على أندية قريش ومعه فتيان هاشم فقال: يا معشر قريش، هل تدرون ما هممت به، قالوا: لا، فأخبرهم الخبر، ثم قال لفتيانه اكشفوا عما في أيديكم، والتفت مخاطبًا القرشيين متهدّدًا متوعّدًا: (والله لو قتلتموه ما أبقيت منكم أحدًا)([9])، ورفع عقيرته مخاطبًا النبي:

اذهب بني فما عليك غضاضة والله لن يصلوا إليك بجمعهم	اذهب وقرّ بذاك منك عيونا
ودعوتني وعلمتُ أنك ناصحي	حتى أوسّد في التراب دفينا
وذكرت دينًا لا محالة إنه	ولقد صدقت وكنت قبلُ أمينا
	من خير أديان البرية دينا([10])

{وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ }([11]):

عندما نزلت هذه الآية على النبي (صلى الله عليه وآله)، أدرك خطورة ما دُعي إليه، ووقف على جسامة ما ندب إلى القيام به، خصوصًا أن في طليعة خصومه أبا لهب عمّه، هذا الذي لم يكن يمتّ إلى أبيه عبد المطلب بشيء من وراثة، لا في طبع، ولا في هيئة، وإنما وقع تحت تأثير خزاعة وهي قبيلة أمّه والتي كانت تحمل الحقد والإصرار على الضغينة، ولا سيما لبني قصيّ وبني عبد مناف، الذين هم آباؤه، لأن بني قصي كانوا قد قهروا خزاعة، وصارت إليهم سيادة الكعبة دونهم، كذلك جاء أبو لهب من عنصرين متضادين، وقسم له أن يرث الأدنى..

نزلت الآية.. فدعا النبي (صلى الله عليه وآله) بني عبد المطلب، فحضروا بمن فيهم أبو لهب.

فقام النبي يحذّرهم مغبّة الشرك وعبادة الأصنام، ويدعوهم إلى عبادة واحد أحد، فرد صمد، بيده ملكوت السماوات والأرض، وأعلمهم تفضيل الله إياهم واختصاصه لهم إذ بعثه بينهم وأمره أن ينذرهم.

فشق ذلك على أبي لهب وتهدّد وتوعّد ومضى يقول: (خذوا على يد صاحبكم قبل أن يأخذ على يده غيركم، فإن منعتموه قتلتم وإن تركتموه ذللتم).

عندها وقف أبو طالب في وجه أبي لهب قائلاً: (يا عورةُ، والله لننصرنّه ولنعينّه).

ثم التفت إلى الرسول قائلاً له: (يا ابن أخي إن أردت أن تدعو إلى ربك فأعلمنا حتى نخرج معك بالسلاح)([12]).

يتبع =

---

[1] - تاريخ اليعقوبي: 2/19.

[2] - الصحيح من السيرة، السيد جعفر مرتضى، دار الهادي، ط4: 5/188. نقلا عن السيرة الحلبية: 1/4.

[3]- بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء،ط2: 35/134

[4]- مستدرك سفينة البحار، مؤسسة النشر الإسلامي، ط 1419هـ: 7/192.

[5] - سورة الحجر من الآية 94.

[6] - سورة الأنبياء من الآية 98.

[7] - الغدير، الأميني، دار الكتاب العربي، ط3، 1967: 7/349، نقلا عن ابن سعد الواقدي في الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت: 1/203.

[8] - المصدر السابق: 7/349.

[9] - المصدر السابق: 7/349.

[10]- المصدر السابق: 7/351.؛ بحار الأنوار: 35/124؛ وروي في مصادر أخرى باختلاف يسير ومنسوبًا إلى أبي طالب في واقعة أخرى راجع مثلاً: مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، المطبعة الحيدرية، النجف، ط 1376: 1/53؛ بحار الأنوار: 35/147؛ تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت: 2/31.

[11] - سورة الشعراء الآية 214

[12] - تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت: 2/27؛ سبل الهدى والرشاد،دار الكتب العلمية، ط1: 2/323،

.

تتمة مقال = بو طالب (ع) الحامي والكفيل

ويروى لأبي طالب أنه قال:

يا شاهد الله عليّ فاشهد		آمنت بالواحد ربّ أحمد
من ضلّ في الدين فإني مهتدي([1])		

وهنا يجدر بنا أن ننوّه بعمة النبي [صفيّة] رحمها الله، وهي أخت أبي لهب لأمه وأبيه، فصاحت بأخيها: (أي أخي، أيحسن بك خذلان ابن أخيك وإسلامه، فوالله ما زال العلماء يخبرون أنه يخرج من ضئضئ عبد المطلب نبيّ، فهو هو)([2]).

تكبكب ملأ من قريش، كبراء وأشرافًا، وجاؤوا إلى أبي طالب في داره، فقالوا له: (أنت شيخنا وكبيرنا وقد أتيناك تقضي بيننا وبين ابن أخيك، فإنه سفّه أحلامنا وشتم آلهتنا)([3]).

وراحوا يطالبون أبا طالب بأن يكفّ النبي عن سبّ آلهتهم، ويكفون هم عن التعرّض له فلا يقاتلهم ولا يقاتلونه، ولكنه يأبى الرسول.

ويقول النبي: (يا عمّ والله لو وُضعت الشمس في يميني والقمر في شمالي، ما تركت هذا القول حتى أنفذه أو أقتل دونه)([4]).

عند ذلك انثنى أبو طالب إلى ابن أخيه، وأقبل إليه قائلاً بعد أن رأى إجماع قريش وتألّبهم على الرسول: (اذهب يا ابن أخي، فقل ما أحببت، فو الله لا أسلمك لشيء أبدًا)([5]):

لا يمنعنك من حق تقوم به فإن كفّك كفي إن بُليت بهم	أيدٍ تصول ولا سلق بأصوات ودون نفسك نفسي في الملمّات([6])

دخل النبي إلى الكعبة، وشرع يصلي لله الواحد الأحد، فقام أبو جهل يغري بمن يفسد على الرسول صلاته، فقام ابن الزّبعرى وتناول فرثًا ودمًا وألقى ذلك عليه، فلما رجع النبي إلى عمه أبي طالب ورآه، سلّ سيفه ومضى معه محمد، فلما رأوه جعلوا ينهضون.

فأرسل فيهم صيحة مجلجلة: (والله لئن قام أحد جلّلته بسيفي).

فقعدوا حتى دنا منهم، ثم قال للنبي (صلى الله عليه وآله): (يا ابن أخي من الفاعل هذا؟)

فأشار للمعتدي، فأمر أبو طالب غلامه أن يحمل الفرث والدم فيلطخ به وجه ابن الزّبعرى، وروي: أنه أمر عبيده أن يمرّوه على أسبلة القوم([7])، أي ما على الشارب من الشعر، ثم مضى أبو طالب ومعه الرسول وهم واجمون لا ينبسون..

قطيعة قريش لبني هاشم([8])

لما رأى المشركون موقف أبي طالب (عليه السلام) من نصرة الرسول (صلى الله عليه وآله)، وسمعوا أقواله، اجتمعوا بينهم أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بني هاشم، وبني المطلب، على أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئًا، ولا يبتاعوا منهم، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة، تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيدًا على أنفسهم.

وأجمع كفار مكة على ذلك.

عندما رأى أبو طالب اجتماع قريش وتألّبهم، دعا بني هاشم، فأمرهم بهجر بيوتهم جميعًا في مكة، رجالاً ونساءً، وذلك حفاظًا على الرسول، وليذهبوا جميعًا فيدخلوا في شِعب أبي طالب، قريبًا من مكة عند الجمرة الوسطى.

وقد ارتأى أبو طالب على قومه هذه النُقلة، لأن بيوتهم في مكة متفرقة، وتَنَقُّل الرسول بينها لا يحميه، ويعرّضه للأذى.

فارتحل بنو هاشم لشِعب أبي طالب، وتركوا متاجرهم وأخلوا ديارهم.

وقد اجتمع القرشيون بما فيهم أبو لهب، أن يمنعوا السلع من أن تباع لأهل الشِعب حتى يموت أهله محاصرين.

ولكن القائد الحكيم، سهر على الشِعب وأهله، فأنشأ يُسَهّل كل مطلب للمحاصرين مهما توعّر، ويصفّي كدرة الزمان كلما تكدّر، ويوزّع الطعام على من يفرغ طعامه، ومن اللباس على من يحترق ثوبه، حتى نفد ما لديه وفرغ ما عنده، فدار عليهم بالصبر يدعو إليه، والجَلَد يحثّ عليه، حتى حلا لهم الجوع، وطاب العذاب، حلاوة ذاقوا فيها شبع الجنة، ونهلوا من أنهار الفردوس، كل ذلك في سبيل حماية الرسول، وصونه، من أن يعرض له أحد بشرّ، ووزّع أبو طالب أعمال الحماية بين أربعين رجلاً، جعل عليهم الحراسة ليلاً ونهارًا، وأوكل إلى قسم منهم أن يقفوا في طريق القبائل في موسم العمرة والحج ليشتروا منهم طعامًا إذا غابت عنهم عيون قريش.

وهنا كان أبو طالب - حفاظًا منه على الرسول وإيمانًا منه بدعوته - يطلب إلى محمد أن يغدو إلى فراشه كل ليلة مبكرًا قبل أن يلجأ الناس جميعًا إلى فراشهم، حتى أهل بيته، كي يراه الناس جميعًا في فراشه، ويعلموا موضعه، فإذا أوى كل إنسان إلى فراشه وهدأ الشِعب في سكون الليل وسكون النوم، دلف الشيخ الهرم خفيفًا متمهّلاً على أطراف قدميه، فأخذ النبي إلى فراشٍ غير الذي نام فيه، وجعل في فراش النبي ابنه عليًا، حتى إذا حدّثت نفس أحد بشرّ، كان المقتول ابنه بدل الرسول، وقد أوصى عليًا بالصبر، لأن الرسالة الكبيرة تحتاج إلى تضحيات كبيرة، وأنشأ يقول له([9]):

اصبرنْ يا علي فالصبر أحجى	كل حيّ مصيره لشعوب
قد بذلناك والبلاء عسير	لفداء النجيب وابن النجيب
لفداء الأغرّ ذي الحسب الثاقب	والباع والفناء الرحيب
إن رمتك المنون بالنَبْل فاصبر	فمصيب منها وغير مصيب
كل حيٍّ وإن تطاول عمرًا	آخذ من سهامها بنصيب

أصرّ القرشيون على مقاطعة الشِعب وأهله، ولكن هذا لم يمنع استيقاظ ضمير الحق في بعض النفوس، أمثال هشام بن عمرو، وزهير بن أبي أمية المخزومي، ومطعم بن عدي، وزمعة بن الأسود، فتلاوموا على كتابة الصحيفة، وعلى المضي في تنفيذها بغير حق ولا رعاية حرمة، فتسالموا على مدّ يد المعونة وإرسال المؤنة للمحاصرين.

واتفق هؤلاء الصِّيد الذين عادت لنفوسهم النخوة العربية على أن يلتقوا إذا ذاب الشفق وأبهم الليل، بأعلى مكة عند [خطم الحجون]، ومضوا إلى الكعبة حين سقطت الشمس وعلا النهار، واستوى الضحى، ليعملوا على تمزيق العهد الذي أمضوه بمقاطعة شعب أبي طالب.

وبينا هم كذلك في وجوم وصموت، إذ يرتفع من باب المسجد صوت شيخ مهيب وقور يهيب بهم، [إن ابن أخي أخبرني ولم يكذبني أن هذه الصحيفة التي في أيديكم قد بعث الله تعالى عليها دابة فأبقت اسم الله وأكلت غدركم وتظاهركم علينا بالظلم].

وفتحت الكعبة، وتسابقت الأيدي إلى الصحيفة، فجمعها في يده [مطعم بن عديّ] لتسلم من أيدي الناس، وخرج بها إلى ظاهر الكعبة، ففتحوها، فراعهم ما رأوا أمام أعينهم، ورقة مأكولة غير اسم الله تعالى كما قال أبو طالب، وكما أخبره الصادق الأمين، فدهش الناس واعتراهم الذهول، إذ إن الأرضة قد أتت على كل كتابة إلا كلمتين اثنتين، هما: (باسمك اللهم)، قدّستها أرضة التراب حين استهان بها جبابرة قريش.

يتبع =

---

[1] - بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، ط2: 35/165، وتروى هذه الأبيات أيضًا لعلي (عليه السلام).

[2] - سبل الهدى والرشاد، دار الكتب العلمية، ط1: 2/323.

[3] - بحار الأنوار: 9/143.

[4] - المصدر السابق: 9/143.

[5]- تاريخ الطبري، مؤسسة الأعلمي، بيروت: 2/67.

[6]- بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، ط2: 35/164.

[7]- نقلت هذه الرواية بالمعنى: راجع: مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، المطبعة الحيدرية، النجف، ط 1376: 1/54. بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، ط2: 18/187.

[8] - راجع هذه الحادثة في: بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، ط2: 35/91-92؛ سيرة النبي (ص)، ابن هشام الحميري، ط1963: 1/234.

[9] - روضة الواعظين، الفتّال النيسابوري، منشورات الرضي، قم: ص54. وروي باختلاف يسير في: الفصول المختارة، الشيخ المفيد، دار المفيد، بيروت، ط2: ص59، وغيره

.

تتمة مقال = أبو طالب (ع) الحامي والكفيل

عندها صاح الحمقى من قريش: هذا من سحر ابن أخيك، فغضب أبو طالب وثارت حميّته، ونادى من جاء معه من قومه: يا بني عبد المطلب، هلمّوا إلى أستار الكعبة، حتى إذا كانوا بين البناء والستار، دعا ربّه رافعًا يديه وأهلُه من خلفه يلبّون: (اللهم انصرنا على من ظلمنا وقطع أرحامنا، واستحل ما يحرم عليه منا، ثم نادى أهله، فدخلوا الكعبة

من كل مكان من شعب أبي طالب، وقد بدا القرشيون مخذولين، منكِّسي رؤوسهم، قد ثقل ما حملوه من ذنوب وأوزار، وأبو طالب يردّد منشدًا([1]):

إذا اجتمعت يومًا قريش لمفخر	فعبد منافٍ سِرُّها وصميمُها
وإن حَضَرت أشراف عبد منافها	ففي هاشم أشرافها وقديمُها
ففيهم نبي الله أعني محمدًا	هو المصطفى من سرّها، وكريمُها
تداعت من قريش غثّها وسمينها	علينا فلم تظفر وطاشت حلومُها

أنت النبيُّ محمد	قرم أعزّ مسوَّد
لمسوّدين أكارم	طابوا وطاب المولد
ولقد عهدتك صادقًا	في القول لا تتزيّد
ما زلت تنطق بالصواب	وأنت طفل أمرد([2])

وقال في أمر الصحيفة أيضًا([3]):

إلا أبلغا عني على ذات بينها	لؤيًا وخُصّا من لؤي بني كعب
ألم تعلموا أنّا وجدنا محمدًا	رسولاً كموسى خُطّ في أول الكتب
وإن عليه في العباد محبّة	ولا حيف فيمن خصّه الله بالحب ويصبحَ من لم يجنِ ذنبًا كذي ذنب
أفيقوا أفيقوا قبل أن تحفر الزبى([4])	لعزّاء من عضّ الزمان ولا كرب
فلسنا وبيت الله نسلم أحمدًا	وأيدٍ أُترّت([5]) بالمهنّدة الشهب
ولمّا تبِن منّا ومنكم سوالف	

(صِلْ جناح ابن عمك)([6]):

في أحد الأيام، رأى أبو طالب ابنه عليًا يقف عن يمين محمد (صلى الله عليه وآله)، يصلي كما يصلي الرسول، فأمر ابنه جعفر: (صل جناح ابن عمك)، فاستجاب الابن البار للأب الحادب فوقف يصلي إلى يساره،، ومضى أبو طالب يردّد:

إن عليًا وجعفرًا ثقتي	عند ملمّ الزمان والنُّوَب
لا تخذلا وانصرا ابن عمكما	أخي لأمي من بينهم وأبي
والله لا أخذل النبي ولا	يخذله من بنيّ ذو حسب

خاتمة:

وبعدُ.. هذا هو أبو طالب شيخ البطحاء، وحامي حماها، ذؤابة أكفّائها، يؤمن برسالة محمد، وبربّ محمد، فينافح عنهما ويناضل دونهما، حتى يلاقي من الويلات، ويعاني من معاداة الأهل ومجافاة الإخوان، حتى حبس في شِعبه، كل ذلك حفاظًا على صاحب الرسالة السمحاء، وصونًا له من أن تناله يد تتربص بشرّ، وذهب به الحفاظ على ابن أخيه أن ضحّى بابنه عليًا وجعله يبيت في فراش الرسول ثم ينقله إلى مكان آخر.

فرحمك الله أبا طالب، أيّ إيمان هذا الإيمان الصلب الذي عمر به قلبك، وأي إسلام صحيح هو إسلامك، حتى وقفت نفسك وذريتك، درءًا عن الرسول وعن رسالته، وحتى كان وقوفك إلى جانب الرسول وإيمانك بدعوته مصدر فرح للمسلمين في بداية الدعوة، حتى عبّر أبو بكر عن ذلك بقوله: (أما والذي بعثك بالحق لأنا كنت أشدّ فرحًا بإسلام عمك أبي طالب مني بإسلام أبي - أبي قحافة -)([7]).

ولهذا حق له أن يقول فيه أمير المؤمنين: (والذي بعث محمدًا بالحق نبيًا لو شفع أبي في كل مذنب على وجه الأرض لشفّعه الله..)([8]).

إلا أن أبا طالب كما يقول إمامنا الصادق (عليه السلام): (من رفقاء النبيين والصديقين)([9])، وطلب الدليل على إسلامه وإيمانه كمن يطلب دليلاً على وجود الشمس في رابعة النهار..

طلب الدليل على الضحى رأد الضحى	يقضي بفقد ضياء عين الطالب

هذا الإيمان الذي تجلّى لنا بأشد ما يكون الوضوح عبر وقوفه إلى جانب محمد وحمايته له، والى جانب هذه الأشعار التي عرضنا لبعض منها في هذه العجالة، والتي تزخم إيمانه العميق بالإله الواحد الأحد، وكيف يخطر في بال أو يرقى شك إلى إيمان أبي طالب وهو كما قال الإمام زين العابدين:(إن الله تعالى نهى رسول الله أن يقرّ مسلمة على نكاح كافر، وقد كانت فاطمة بنت أسد من السابقات إلى الإسلام ولم تزل تحت أبي طالب حتى مات) ([10]).

فرحمك الله أيها المؤمن الصابر المحتسب، الذي ما وَجَد رسول الله على أحد وَجده على فقدك، حتى سمّى عام وفاتك بعام الحزن، وكيف لا يكون ذلك وقريش ما تجرأت على النبي ما دمت حيّا، فقضيت اثنين وأربعين عامًا تنافح وتدافع عن محمد ودعوته،حتى قبضك الله إليه، وما ذهبت عن هذه الدنيا حتى تركت من بعدك ابنك عليًا ليقوم بالأمر ويقف في وجه كل من تسوّل له نفسه بمحاربة الرسول،ولقد أجاد ابن أبي الحديد بقوله([11]):

فلولا أبو طالب وابنه	لما مثل الدين شخصًا فقاما
فذاك بمكة آوى وحامى	وذاك بيثرب خاض الحماما
فلله ذا فاتحًا للهدى	ولله ذا للمعالي ختاما

انتهى المقال

---

[1] - بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، ط2: 35/131

[2] - شرح نهج البلاغة: 14/77.

[3] - بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، ط2: 35/159

[4] - عن سيرة ابن هشام (الثرى) بدل (الزبى).

[5] - أي قطعت.

[6] - بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، ط2: 35/121

[7] - شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، منشورات المرعشي، قم (طبعة دار إحياء التراث، بيروت) الطبعة الثانية: 14/68.

[8] - الأمالي،الطوسي، دار الثقافة، قم، ط1: ص305 بحار الأنوار: 35/69.

[9] - كنز الفوائد، الكراجكي، مكتبة الصفوي، قم، ط3، 1410هـ: ص80.

[10] - بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، ط2: 35/157. شرح النهج، ابن أبي الحديد: 14/69.

[11] - الاحتجاج، الطبرسي، منشورات دار النعمان، النجف الأشرف: ج1 هامش ص350. كتاب الأربعين، الماحوزي، ط1، 1417: هامش ص206

الهوامش

* باحث وأديب.

حكم المال الذي يتعذر إيصاله لمالكه

الشيخ محمد تقي الفقيه (قده)

رسالة في حكم المال الذي يتعذر إيصاله لمالكه

الشيخ محمد تقي الفقيه(قدس سره)

تمهيد:

هذه الرسالة في [بيان حكم المال الذي يتعذر إيصاله لمالكه]، حرّرها المؤلف (قدس سره) في 9 ربيع الثاني1390هـ، الموافق21نيسان1975م. وذكر في مقدّمتها السبب في تحريرها فقال: [لاحظت أنَّ حكم المال الذي يتعذر إيصاله لمالكه مختلف، مثل حكم المال المجهول المالك، ومثل حكم المال الحرام المختلط بالحلال الذي لا يُعرف مالكه، ومثل حكم المظالم التي انشغلت بها ذمة الناس ولا يعرفون أربابها، ومثل حكم الدَّين الذي غاب صاحبه غيبة منقطعة، ومثل حكم اللقطة، وما أشبه ذلك، فإنَّ هذه الأنواع من الأموال وإن كان يجمعها جامع واحد وهو تعذّر إيصال المال إلى مالكه إلاَّ أنَّ لها صورًا كثيرة تختلف أحكامها باختلافها، وقد يصعب على الفقيه مراجعة كلٍّ في مورده والإحاطة بمدركه، لأنَّ بعضها ليس له عنوان في الفقه يخصّه، فقد يذكرها فقيه في مورد من كتابه ويذكرها غيره في مورد آخر تبعًا للمناسبة التي دعته لذلك، وقد أفرد الفقهاء للّقطة كتابًا مطولاً، وأسهبوا في كتاب الخمس في حكم المال المختلط بالحرام].

ثم ذكر: أنه رغم ذلك بقي حكم المال الذي يتعذر إيصاله لمالكه بحاجة إلى التحقيق والإيضاح، ومن أجل ذلك أفرد له هذه الرسالة.

مقدمة:

أنواع المال الذي لا يمكن إيصاله لمالكه كثيرة وأحكامها مختلفة([1]):

أحدها: اللقطة، وقد أفرد الفقهاء لها كتابًا خاصًا لاختلاف مواردها وأحكامها.

ثانيها: المال الحرام الذي اختلط بالحلال، وقد تعرض له الفقهاء في كتاب الخمس.

ثالثها: ما يتركه الميت الذي ليس له وارث أو لا يعلم وارثه، وقد تعرض له الفقهاء في كتاب المواريث في ميراث الإمام (عليه السلام).

رابعها: تراب الصّاغة وقد تعرّض له الفقهاء في كتاب الصرف، ويلحق به القصاصات التي تجتمع عند الخيّاطين من أقمشة الناس التي يخيطونها لهم، وفضلات الأخشاب التي تجتمع عند النجّارين من أخشاب الناس الذين كلّفوا بصنعها لهم أبوابًا وما أشبه ذلك، ومنها ما يتساقط من الباعة من الغلّات والأطعمة في المحلات التي تباع فيها ويختلط بعضه ببعض ولا يتميّز.

خامسها: المال المجهول المالك كالأموال التي ينساها أربابها عند غيرهم، وقد يكون منها الأموال التي يحملها السيل والريح.

سادسها: الأموال التي تشتغل ذمّة المكلف بها وهي لغيره، وقد تكون معلومة المقدار والجنس وقد تكون مجهولة، وقد تكون من الأعيان أو من المنافع.

سابعها: المال الذي يودعه اللص عند المسلم.

إذا عرفت هذا فاعلم:

أن الكلام في المال الذي لا يمكن إيصاله لمالكه يقع في مقامين:

المقام الأول: في سرد النصوص المتعلقة فيما نحن فيه وهي كثيرة:

الأولى: موثقة إسحاق بن عمار، بل صحيحته، قال: (سألت أبا إبراهيم (عليه السلام) عن رجل نزل في بعض بيوت مكة، فوجد فيها نحوًا من سبعين درهمًا مدفونة، فلم تزل معه ولم يذكرها حتى قدم الكوفة، كيف يصنع؟ قال (عليه السلام): يسأل عنها أهل المنزل لعلّهم يعرفونها، قلت: فإنْ لم يعرفوها؟ قال: يتصدق بها)([2]).

الثانية: مصحّحة يونس بن عبد الرحمن، قال: (سُئل أبو الحسن الرضا (عليه السلام) وأنا حاضر، إلى أن قال: فقال: رفيق كان لنا بمكة فرحل إلى منزله، ورحلنا إلى منازلنا، فلما أن صرنا في الطريق أصبنا بعض متاعه معنا، فأي شيء نصنع به؟ قال (عليه السلام): تحملونه حتى تحملوه إلى الكوفة، قال: لسنا نعرفه ولا نعرف بلده، ولا نعرف كيف نصنع؟ قال: إذا كان كذا فبعه وتصدق بثمنه، قال له: على من جعلت فداك؟ قال: على أهل الولاية)([3]).

وفي رواية الكليني: (تحملونه حتى تلحقوهم بالكوفة، فقال يونس: قلت له: لست أعرفهم ولا ندري كيف نسأل عنهم؟ قال: فقال: بعه وأعطِ ثمنه أصحابك، قال: فقلت: جعلت فداك، أهل الولاية؟ فقال: نعم)([4]).

الثالثة: ما رواه المشايخ الثلاثة مسندًا، والمفيد، قال: (سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن رجل من المسلمين أودعه رجل من اللصوص دراهمَ أو متاعًا، واللصّ مسلم، هل يردّ عليه؟ فقال: لا يردّه، فإن أمكنه أن يردّه على أصحابه فعل، وإلا كان في يده بمنزلة اللقطة يصيبها فيعرّفها حولاً، فإن أصاب صاحبها ردّها عليه، وإلا تصدق بها،

فإن جاء طالبها بعد ذلك خيَّره بين الأجر والغرم، فإن اختار الأجر فله الأجر وإن اختار الغرم غرم له، وكان الأجر له)([5]).

قلت: يظهر من تتمة الرواية أنه يعلم أنّ المال ليس للصّ، ولا ريب أنه ليس من اللقطة، بل هو من مجهول المالك، ولكن مقتضى عموم التنزيل في قوله (عليه السلام) (هو بمنزلة اللقطة) هو وجوب التنذير وما يتبعه من التصدّق، فلا يختلف حكمه حينئذ عن حكم مجهول المالك، ومورد هذه الرواية المال المعلوم عينًا، الذي يعلم اللصّ صاحبه، ولكن مَنْ بيده المال لا يعلمه.

الرابعة: خبر علي بن أبي حمزة، قال: (كان لي صديق من كتَّاب بني أمية..) ثم ذكر دخوله على الصادق (عليه السلام) وأنه قال له: (إني كنت في ديوان هؤلاء القوم فأصبت من دنياهم مالاً كثيرًا، وأغمضت في مطالبه..) إلى أن قال: (جعلت فداك، فهل لي مخرج منه؟ قال (عليه السلام): إن قلت لك تفعل؟ قال: أفعل. قال له: فاخرج من جميع ما كسبت في ديوانهم، فمن عرفت منهم رددت عليه ماله، ومن لم تعرف تصدّقت به، وأنا أضمن لك على الله عزّ وجل الجنّة، فأطرق الفتى طويلاً، ثم قال له: لقد فعلت، جعلت فداك، قال ابن أبي حمزة: فرجع الفتى معنا إلى الكوفة فما ترك شيئًا على وجه الأرض إلا خرج منه، حتى ثيابه التي كانت على بدنه، قال: فقسمت له قسمة، واشترينا له ثيابًا، وبعثنا إليه بنفقة، قال: فما أتى عليه إلا أشهر قلائل حتى مرض فكنَّا نعوده، قال: فدخلت يومًا وهو في السَّوْق([6]) قال ففتح عينيه ثم قال لي: يا علي وفى لي والله صاحبك، قال: ثم مات، فتولينا أمره، فخرجت حتى دخلت على أبي عبد الله (عليه السلام) فلما نظر إليّ قال لي: يا عليّ وفينا والله لصاحبك.. الحديث)([7]).

قلت: وهذه الرواية ظاهرة في وجوب التصدّق بالمال المجهول المالك المعلوم العين.

الخامسة: صحيحة زرارة قال: (سألت أبا جعفر (عليه السلام) عن الرجل يكون عليه الدَّين لا يقدر على صاحبه، ولا على وليّ له، ولا يدري بأيّ أرض هو؟ قال: لا جناح عليه بعد أن يعلم الله منه أن نيّته الأداء)([8]).

قلت: هذه الرواية لا شاهد فيها، نعم يمكن أن تكون الروايات الآنفة مبيِّنة لها.

السادسة: صحيحة معاوية بن وهب، قال: (سئل أبو عبد الله (عليه السلام) عن رجل كان له على رجل حقّ ففُقِد، ولا يدري أحيٌّ هو أم ميِّت ولا يُعرف له وارث ولا نسب ولا بلد، قال: اطلبه، قال: إنَّ ذلك قد طال، فأصَّدق به؟ قال: اطلبه)([9]).

السابعة: موثقة هشام بن سالم، قال: (سأل حفص الأعور أبا عبد الله (عليه السلام) وأنا عنده جالس، قال: إنه كان لأبي أجير كان يقوم في رحاه، وله عندنا دراهم وليس له وارث، فقال أبو عبد الله (عليه السلام): تدفع إلى المساكين، ثم قال: رأيك فيها، ثم أعاد عليه المسألة، فقال له مثل ذلك، فأعاد عليه المسألة ثالثة، فقال أبو عبد الله

(عليه السلام) تطلب وارثًا فإن وجدت وارثًا وإلا فهو كسبيل مالك، ثم قال: ما عسى أن يصنع بها؟ ثم قال: توصي بها، فإن جاء طالبها وإلا فهي كسبيل مالك)([10]).

الثامنة: صحيحة هشام بن سالم، قال: (سأل خطّاب الأعور أبا إبراهيم (عليه السلام) وأنا جالس فقال: إنه كان عند أبي أجير يعمل عنده بالأجرة ففقدناه وبقي من أجره شيء ولا يعرف له وارث، قال فاطلبوه، قال: قد طلبناه فلم نجده قال: فقال: مساكين ـ وحرّك يده ـ قال: فأعاد عليه، قال: اطلب واجهد فإن قدرت عليه، وإلا فهو كسبيل مالك حتى يجيء له طالب، فإن حدث بك حدث فأوصِ به إن جاء لها طالب أن يدفع إليه)([11]).

قلت: رواية هشام الأولى صريحة في وجوب التصدق، وإلحاح حفص يبعث على الريب فيما تضمنه ذيلها، والثانية صريحة فيما تضمنه ذيل الأولى، ويمكن حملها عليها جمعًا، ثم إن ظاهر الثانية بقاء أجرته في ذمّة أبيه، بخلاف الأول، هذا واحتمال وحدة الواقعة في الروايتين قريب، ولكن السند مختلف والسائل أيضًا مختلف، ومن البعيد أن يكون حفص هو خطّاب.

يتبع =

---

[1] - اعلم أنَّ أقسام المال الذي يتعذر إيصاله لمالكه ثلاثة لا غير:

أولها: العين الخارجية المتميزة، التي لا يمكن إيصالها لمالكها إما لجهله به، وإما لجهله بمكانه مع علمه به، وإما لمانع يمنع من الوصول إليه مع علمه به وبمكانه.

ثانيها: العين الخارجية المشتبهة بغيرها مع تعذّر تمييزها، كالمال الحرام المختلط بالحلال اختلاطًا يمنع من تمييزها، وهذا الاختلاط قد يكون مؤديًا للإشاعة كاختلاط الزيت والحنطة بمثليهما، وقد لا يكون كذلك كالشاة في القطيع.

ثم إنه قد يكون معلوم الجنس والمقدار، وقد يكون مجهول الجنس والمقدار كما لو علم بوجود مال محرم في أعيان ماله ولكنه لا يدري أنه صاع أو صاعين على تقدير كونه من الأطعمة أو واحد أو اثنين على تقدير كونه من الحيوانات، وقد يكون معلوم الجنس ومجهول المقدار كما لو علم أن في ماله حنطة مغصوبة يجهل مقدارها، وقد يكون معلوم المقدار ومجهول الجنس كما لو علم أنَّ في ماله صاعًا في مثله، ولكنه لا يعلم أنه في الزبيب أو في الحنطة أو غيرهما مما يكال بالصاع، وكما لو علم بوجود حيوان واحد في ضمن ما يملك من أصناف الحيوانات ولكنه لا يدري أنها بقرة أو شاة أو غيرهما.

ثالثها: المال الذي يكون في الذمّة، وهذا المال قد يكون معلوم الجنس والمقدار، وقد يكون مجهولهما، وقد يكون معلوم الجنس ومجهول المقدار، وقد يكون معلوم المقدار ومجهول الجنس، وتأتي الصور الثلاثة المتقدمة بالنسبة للمالك في جميع هذه الأقسام (منه قده).

[2] - الوسائل، ب 5 من أبواب اللقطة ح3.

[3] - الوسائل، ب 7 من أبواب اللقطة ح2.

[4] - الكافي، دار الكتب الإسلامية، ط3: 5/309، حديث 22.

[5] - الوسائل، ب18 من أبواب اللقطة ح1.

[6] - أي الشدة.

[7] - الوسائل، ب47 من أبواب ما يكتسب به ح1.

[8] - الوسائل، ب22 من أبواب الدَّين والقرض ح1.

[9] - المصدر السابق، نفس الباب ح2.

[10] - المصدر السابق، نفس الباب ح3.

[11] - الوسائل، ب 6 من أبواب حكم ميراث الخنثى وما أشبهه ح1.

.

تتمة مقال = المال الذي يتعذر إيصاله لمالكه

التاسعة: صحيحة داوود بن أبي يزيد عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (قال: إني قد أصبت مالاً وإني قد خفت فيه على نفسي، ولو أصبت صاحبه دفعته إليه وتخلصت منه، قال: فقال له أبو عبد الله (عليه السلام): والله أن لو أصبته كنت تدفعه إليه؟ قال: إي والله، قال: فأنا والله ما له صاحب غيري، قال: فاستحلفه أن يدفعه إلى من يأمره، قال: فحلف، فقال: فاذهب، فاقسمه في إخوانك، ولك الأمن مما خفت منه، قال فقسمته بين إخواني)([1]).

قال في الوسائل ورواه الصدوق بإسناده عن الحجّال، قال الصدوق: كان ذلك بعد تعريف سنة.

العاشرة: صحيحة زرارة، قال: (سألت أبا جعفر (عليه السلام) عن اللقطة؟ فأراني خاتمًا في يده من فضّة، قال: إن هذا مما جاء به السّيل، وأنا أريد أن أتصدّق به)([2]).

قلت: التعريف بما أتى به السّيل متعذّر، فيجري عليه حكم مجهول المالك، وأما صحيحة داوود فظاهر الصدوق حملها على اللقطة اجتهادًا، ويحتمل أن يكون ما ذكره رواية مرسلة، وعلى كل حال فقوله فيها (إني قد أصبت مالاً)، ليس ظاهرًا في كونه بنحو اللقطة ولا في كونه بطريق آخر.

ومن أجل هذا يمكن حملها على كل من مجهول المالك وعلى اللقطة التي لا يمكن تعريفها، والجامع بينهما اليأس عن الوصول لمالكه، كما يشهد بذلك قول السائل: (ولو أصبت صاحبه دفعته إليه) ويكون قوله (عليه السلام): (ما له صاحب غيري) دليلاً على أن هذا النوع له (عليه السلام) أو على أن ولايته له.

الحادية عشرة: رواية نصر بن حبيب صاحب الخان، قال: (كتبت إلى عبدٍ صالح (عليه السلام)، لقد وقعت عندي مائتا درهم وأربعة دراهم، وأنا صاحب فندق، ومات صاحبها، ولم أعرف له ورثة فرأيك إعلامي حالها وما أصنع بها فقد ضقت بها ذرعًا؟ فكتب: اعمل فيها وأخرجها صدقة قليلاً قليلاً حتى يخرج).

قلت: مال الميت الذي لا وارث له للإمام (عليه السلام)، والنصوص وافية بذلك، وما يعارضها محمول عليها جمعًا، والظاهر أن حكم مال الميت الذي لا يمكن معرفة وارثه حكم مال الميت الذي لا وارث له، على أنه يمكن أن يكون أمره بالتصدق به تدريجًا في رواية نصر والتصدّق به في رواية داوود المتقدّمة لكون المال ماله وهو مسلّط عليه.

الثانية عشرة: رواية الهيثم ابن أبي رَوْح صاحب الخان، قال: (كتبت إلى عبدٍ صالح (عليه السلام): إني أتقبّل الفنادق فينزل عندي الرجل، فيموت فجأة ولا أعرفه ولا أعرف بلاده ولا ورثته، فيبقى عندي كيف أصنع به؟ ولمن ذلك المال؟ قال: اتركه على حاله)([3]).

الثالثة عشر: حسنة محمد بن القاسم بن فضيل بن يسار عن أبي الحسن (عليه السلام): (في رجل صار في يده مال لرجل ميت لا يعرف له وارثًا، كيف يصنع بالمال؟ قال: ما أعرفك لمن هو، يعني نفسه)([4]).

الرابعة عشرة: ما ورد من الأمر بالتصدق بغلّة الوقف المجهول أربابه - كما ذكره شيخنا المرتضى رحمه الله - ولم أجده فيما تتبعت([5]).

الخامسة عشرة: الصحيحة إلى علي بن ميمون الصائغ، ولعله حسن، قال: (سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عمَّا يكنس من التراب فأبيعه، فما أصنع به؟ قال: تصدق به، فإما لك وإما لأهله، قال: قلت: فإنَّ فيه ذهبًا وفضة وحديدًا، فبأي شيء أبيعه؟ قال: بعه بطعام، قلت: فإن كان لي قرابة محتاج أعطيه منه، قال: نعم).

السادسة عشرة: المصحّحة إلى عليّ الصائغ، قال: (سألته عن تراب الصواغين وأنَّا نبيعه، قال: أما تستطيع أن تستحله من صاحبه، قال: قلت: لا، إذا أخبرته اتهمني، قال: بعه، قلت: بأي شيء نبيعه؟ قال: بطعام، قلت: فأي شيء أصنع به؟ قال: تصدق به، إما لك وإما لأهله, قلت: إن كان ذا قرابة محتاجًا أصِلُه؟ قال: نعم)([6]).

قلت: وجه الاستدلال بهما هو ظهورهما في جواز التصدّق بثمن ذلك التراب المعلوم المالك في الجملة لتعذّر إيصاله لأهله بسبب اختلاطه وتعذّر تمييزه، وعدم وجوب التحلّل من جهة خوف التهمة التي يتضرر بها المتحلّل ولا يستفيد منها المالك، لأنّه لو أراد حقّه بخصوصه لم يشتره منه أحد، ويحتمل أن يكون لتراب الصاغة موضوعية من جهة عدم اعتناء العقلاء به، لأن قليله لا يباع، وكثيره لا للواحد عادة أو غالبًا فيكون مما أعرض عنه مالكه.

مضافًا إلى تعذّر جمع التراب من كل قطعة مستقلاً أو تعسّره، لكون قيمة وقت الصائغ الذي ينفقه في حفظه وجمعه وتأمينه من الاختلاط أكثر من قيمته.

وبالجملة حكم هذا التراب هو وجوب التصدق به، وما يقال به مما يخالف ذلك فهو من الاجتهاد في مورد النص([7]).

ثم إنَّ هذه المسألة سيّالة:

منها: ما يجتمع عند الخياطين من القصاصات، ثم بعد اجتماعه يصبح له قيمة كما هو الحال في هذا الزمان.

ومنها: ما يجتمع من نفايات الأخشاب في معامل النجارة.

ومنها: ما يجتمع في معامل التنك والحديد والصفر.

ومنها: ما يجتمع في محلات بيع الأطعمة من الشعير والحنطة وسائر الحبوب، مما يتساقط من الباعة أثناء وزنه وإفراغه ونقله.

ومنها: ما يجتمع في معاصر الزيتون ومطاحن الحبوب وما أشبه ذلك.

المقام الثاني: في بيان ما يستفاد من النصوص المذكورة بالنسبة لكل نوع من أنواع المال الذي لا يمكن إيصاله لأصحابه

وأنواعه كثيرة وأحكامه مختلفة:

النوع الأول: ما يكون عينًا خارجية متميّزة ويكون معلوم المالك سواء كان معلومًا بالعلم التفصيلي أو الإجمالي المنجّز، وهذا النوع يجب إيصاله لمالكه أو من يقوم مقامه، كالولي الخاص أو العام أو الوكيل، فإن تعذّر فله حكم خاص.

النوع الثاني: ما يكون عينًا خارجية متميزة ويكون مجهول المالك، كالمال الذي أضاعه صاحبه فوجده آخر، وهذا هو اللقطة، وحكمه يؤخذ من مباحث اللقطة لأنَّ أحكام اللقطة مختلفة.

النوع الثالث: ما يكون عينًا خارجية متميّزة ويكون مجهول المالك بالمعنى الأخص، وذلك كالدراهم التي وجدها الرجل في بعض بيوت مكة، كما في موثقة إسحاق، وكالأمتعة التي نسيها رفيقهم معهم عند عودتهم من الحج، كما في مصححة يونس، وكالمال الذي مات صاحبه ولا يعرف وارثه كما في روايتي صاحب الخان، بناءً على أنَّ موردهما عدم معرفة الوارث لا عدم وجود الوارث، وحكم هذا المال هو وجوب التصدّق به بعد الفحص عن مالكه، واليأس من معرفته.

ومن هذا الصنف الأمانة التي نسي الوَدَعي صاحبها، والثوب الذي أطارته الريح فوقع في منزل غير منزل صاحبه ولم يعرفه، والشاة التي دخلت في غير قطيعها بل والمال الذي اغتصبه أو دخل عليه بمعاملة فاسدة ولم يعرف صاحبه، ومنه المال الذي ينساه صاحبه في بيتِ آخر أو في حانوته، ومنه ما يتناوله من الثياب والأحذية في الحمام أو الفندق أو المسجد معتقدًا أنه له، وما أشبه ذلك مما هو معلوم الجنس ومجهول المالك، ولا يمكن إيصاله لمالكه.

وحكم هذا الصنف وجوب التصدق به بعد الفحص عن مالكه واليأس منه، عملاً بمقتضى النصوص المتقدمة بعد حمل بعضها على بعض للقطع بعدم الخصوصية.

ثم إنه في كون مجهول المالك للإمام (عليه السلام) - كما هو ظاهر صحيحة داوود - أو كونه مما يجب التصدق به، كما هو ظاهر سائر الروايات، وجهان؟

ثم إنه بناءً على وجوب التصدق به، ففي كون ولاية التصدق للإمام (عليه السلام) أو لمن هو بيده وجهان، وقد تعرضنا له مفصلاً في كتابنا الخمس من مباني العروة الوثقى([8])في مبحث وجوب الخمس في المال الحلال المختلط بالحرام، وقد قوّينا وجوب التصدّق به وقلنا بأنَّ ولاية التصدق به للإمام (عليه السلام)، فقلنا ما يلي:

إنَّ مقتضى هذه الروايات هو وجوب التصدق به بعد اليأس من معرفة صاحبه، أما وجوب التصدّق به فلصراحة النصوص فيه، وأما اشتراط اليأس فلأنَّه هو القدر المتيقن مما هو خلاف القواعد.

مضافًا إلى إمكان استظهاره من النصوص كما لا يخفى على من لاحظها، وعلى هذا لا يجب انتظار الحَول مع اليأس من العثور على المالك ولا يُكتفى به مع احتمال العثور عليه للأصل، ولا تعارض هذه الروايات روايات اللقطة ولا رواية حفص بن غياث الواردة فيما يودعه اللص([9])لاختلافها موردًا، فإنَّ مورد روايات اللقطة ضياع المال وجهل المالك، ومورد ما يودعه اللص واضح، وموردهما مخالف لمورد روايات مجهول المالك الذي هو معلوم الشخص ومجهول المكان، ولا تعارضها أيضًا روايات المال الحلال المختلط بالحرام، لأنَّ مورد روايات مجهول المالك العلم بالمال وبمالكه والجهل بمكانه، وهو غير مورد روايات المال المختلط بالحرام بالضرورة.

يتبع =

---

[1] - الوسائل، ب7 من أبواب اللقطة ح1.

[2] - المصدر السابق، نفس الباب ح3.

[3] - الوسائل، ب6 من أبواب ميراث الخنثى وما أشبه ح 3-4.

[4] - الوسائل، ب3 من أبواب ضمان الجريرة والإمامة ح13.

[5] - راجع: المكاسب، الشيخ الأنصاري، مؤسسة الهادي، ط1: 4/33، وهي رواية علي بن راشد قال: سألت أبا الحسن عليه السلام قلت: (جعلت فداك اشتريت أرضًا إلى جنب ضيعتي بألفي درهم، فلما وفيت المال خبرت أن الأرض وقف، فقال: لا يجوز شراء الوقف ولا تدخل الغلة في مالك وادفعها إلى من وقفت عليه، قلت: لا أعرف لها ربا قال: تصدق بغلتها)، الوسائل، مؤسسة آل البيت: ج17، ب17 من أبواب عقد البيع وشروطه ح1.

[6] - الوسائل: ب 16 من أبواب الصرف ح 1-2.

[7] - لاحظ ما ذكرناه في التعليق على روايتي تراب الصاغة في كتابنا الخمس من مباني العروة الوثقى ص 112 (منه قده).

[8] - الخمس من مباني العروة الوثقى، الطبعة الأولى، 1978م، الموافق 1398هـ: ص113.

[9] - الوسائل: كتاب اللقطة، وأما رواية حفص فهي في باب 18 من أبواب اللقطة.

.

تتمة مقال = المال الذي يتعذر إيصاله لمالكه

إذا عرفت هذا فاعلم أنَّ المحتملات في باب مجهول المالك ثلاثة:

أولها: أن يكون ملكًا للإمام (عليه السلام) على نحو ملكيّته لميراث من لا وارث له.

ثانيها: أنه ليس له، ولكن ولاية التصرف فيه له.

ثالثها: كون ولاية التصرف فيه لمن هو بيده.

وتنشأ هذه الاحتمالات من اختلاف الفهم بالنسبة إلى النصوص، فقوله (عليه السلام) في رواية داوود: (واللهِ ما له مالك غيري) إن كان المقصود منه كونه له بالعنوان الأوليّ لأنَّه فُقد منه أو أضاعه بعض غلمانه، تكون الرواية خارجة عن مجهول المالك موضوعًا، وتكون سائر النصوص دالة على وجوب التصدّق به بلا معارض.

وإن كان المقصود منه كونه له بالعنوان الثانوي نظير ميراث من لا وارث له، تكون دالّة على ملكيته له بهذا النحو.

وإن كان المقصود منه كون ولاية التصرف فيه له فقط، كانت دالة على منع من هو بيده من التصرف فيه بغير إذنه.

وعلى جميع التقادير تكون ولاية التصرف فيه له، إما لأنَّه يملكه فيكون مسلّطًا عليه، وإما لأن ولاية التصرف فيه له، وأما احتمال كون ولاية التصرف فيه لمن هو بيده فإنَّه ناشىء من ملاحظة النصوص المتضمنة لأمره إياه بالتصدّق به.

وفيه: أنّ أمره بذلك كما يمكن أن يكون من جهة كون ولاية التصرف فيه لمن هو بيده، يمكن أيضًا أن يكون من جهة أن ولاية التصرف فيه للإمام (عليه السلام) ويكون أمره إياه بالتصدق به من باب الإذن بذلك.

إذا عرفت هذا فاعلم أنه يمكن أن يقال بأن القرائن المقامية توجب القطع بأنه ليس له بالعنوان الأوليّ، لأنَّه لو كان له لكان المناسب تعرضه لفقدانه أو ضياعه، ولَذَكَر الجنس والمقدار وسائر العلامات، ولَأَمره بدفعه إليه، لأن طبيعة المالكين تدعو للمطالبة بما لهم لا إلى التصدّق به، فالأمر بالتصدّق قرينة على أنه ليس له على نحو الملكية الشخصية، والتصدّق وإن كان يناسب مقام الإمام ولا سيما مع احتمال تطرق التهمة، إلا أن ذكر الجنس والمقدار وسائر العلامات كافٍ في دفع التهمة، هذا مضافًا إلى أنَّ السائل إنما سأله عن حكم هذا المال الذي لا يعرف صاحبه، فالواجب حمل الجواب على ما هو مقتضى السؤال، ولا سيما وأن ذكر الحكم هو الذي يناسب منصب الإمامة، فحمله على الإذن بصرف ماله الخاص مخالف لجهة السؤال.

والمناقشة في هذه الأمور ممكنة والذبّ عنها كذلك، إلاَّ أنَّ ذلك لا يخرجها عن كونها بابًا من أبواب تقريب الاستظهار.

ويمكن أن يستفاد ذلك أيضًا من قوله (عليه السلام): (ولك الأمن مما خفت منه)، بدعوى أنَّ السائل لو فهم منه أنه ملكه الخاص بالعنوان الأوليّ لم يبق حاجة إلى تأكيد الأمان.

وعلى هذا يتعين كون المقصود بالفقرة المذكورة إمَّا كونه له بالعنوان الثانوي نظير ميراث من لا وارث له، وإمَّا كون ولاية التصرف فيه له، ويكون المعنى ليس له صاحب يسوغ له التصرف فيه غيري.

إن قلت: لما لا يقال: الرواية ظاهرة في ملكيته له بالعنوان الثانوي بمقتضى ما قدمناه من القرائن، وحينئذ تكون هذه الرواية من قسم المبيّن وتكون سائر الروايات من قسم المهمل، ومقتضى القواعد حمل المهمل على المبيّن.

قلت: هذا معنىً لا بأس به بل لعله هو الذي فهمه غير واحد من الفقهاء، ومنه يتضح أنه لا منافاة بين هذه الرواية وبين سائر الروايات، وأنَّ مصرف مثل هذا المال الراجع له بالعنوان الثانوي هو التصدّق به، والله المسدد.

ومن ذلك يتضح أنَّ ولاية التصدق به للإمام وليست لمن بيده المال، ويؤيد ذلك أصالة عدم ولاية من هو بيده وعموم ولاية الإمام (عليه السلام)، وليس في النصوص شيء واضح يقتضي ولاية من بيده المال إلا احتمال استفادة ذلك من أمره له بالتصدّق به، ولكنْ هذا احتمال معارَض باحتمال كون ذلك إذنًا له بالتصدّق به، ومع الشك فمقتضى الأصل عدم جواز تصدّقه به إلا بعد الاستئذان منه أو من نائبه، والله العالم.

ثم إنَّ حكم المال الذي أودعه اللصّ المسلم، هل هو حكم اللقطة من حيث وجوب التنذير سنة؟ أو حكم مجهول المالك من حيث وجوب الفحص عن مالكه إلى أن يحصل اليأس، سواء قلَّت مدة الفحص أو طالت؟ وجهان.

مقتضى الجهل بالمكان هو الثاني، ومقتضى قوله (عليه السلام) في الرواية الثانية (هو بمنزلة اللقطة) هو الأول.

النوع الرابع: ما يكون عينًا خارجية غير متميزة، ويكون مجهول الجنس والمقدار والمالك، وهذا هو القدر المتيقن من الروايات المتضمنة لوجوب الخمس في المال الحلال المختلط بالحرام، وأما إذا كان معلوم المقدار تفصيلاً، فلا ينبغي الريب في خروجه من هذه المسألة، ويتضح حكم ما إذا علم أنه أقل من الخُمس أو أكثر ولم يعلم مقداره بملاحظة ما ذكرناه في كتابنا الخمس من مباني العروة الوثقى([1])، وقلنا ما يلي:

أقول: المشهور شهرة عظيمة وجوب الخمس في المال الحلال المختلط بالحرام، وهو المحكي في الجواهر عن النهاية والغنية والوسيلة والسرائر والنافع والقواعد والتذكرة والمنتهى والإرشاد والتحرير واللمعة والبيان وحواشي البخارية والتنقيح والروضة وحاشية الإرشاد والحدائق والرياض وغيرها، بل عن المنتهى نسبته إلى أكثر علمائنا، وعن المفاتيح إلى المشهور، وعن ظاهر الغنية أو صريحها الإجماع عليه([2])، وعن البيان أن ظاهر الأصحاب ذلك([3]).

هذا وعن القديمين والمفيد وسلاَّر وغيرهم أنهم لم يتعرّضوا له، وعدم تعرّضهم له ظاهر في كونهم لا يقولون بوجوب الخمس فيه، وعن صاحب المدارك والكاشاني والخراساني الميل إلى عدم وجوب الخمس فيه، والرجوع للقواعد، وعن مجمع البرهان أنه تأمّل في وجوب الخمس فيه([4])، وعن صاحب المدارك أنه قال: [والمطابق للأصول وجوب عزل ما يتيقن انتفاؤه عنه والتفحص عن مالكه إلى أن يحصل اليأس من العلم به فيتصدّق به على الفقراء كما في غيره من الأموال المجهولة المالك، وقد ورد التصدّق بما هذا شأنه في روايات كثيرة مؤيدة بالإطلاقات المعلومة وأدلة العقل، فلا بأس بالعمل بها إن شاء الله تعالى]([5]).

وعن المستند([6])أنه أطال المناقشة في نصوص الباب، تارة من جهة صحة النسخ، وأخرى من جهة الدلالة، وثالثة من جهة المعارضة بما دل على حلّ المختلط مطلقًا أو على حلّ المختلط بالحرام بالربا.

إذا عرفت هذا فاعلم: أن مقتضى القواعد الأوليّة، أن كل ما يعلم المكلف بأنه ليس له، عينًا أو مقدارًا، يجب دفعه لمالكه أو من يقوم مقامه إن كان يعرفه، وإلا جرى عليه حكم مجهول المالك. وأما إذا لم يعرفه عينًا ولا مقدارًا، فالمتعيّن الصلح مع أربابه إن كان يعرفهم، وإلا فمع الحاكم الشرعي.

ثم إنه بناء على وجوب الخمس فيه، فهل يكون مصرفه مصرف الخمس، أو يكون مصرف مجهول المالك لشمول أدلته له، ولقوله (عليه السلام) في موثقة السكوني الآتية: (تصدّق بخمس مالك)؟ احتمالان.

والأصل في هذه المسألة عدّة روايات:

أولها: صحيح عمار بن مروان قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: (فيما يخرج من المعادن، والبحر، والغنيمة، والحلال المختلط بالحرام، إذا لم يعرف صاحبه، والكنوز: الخمس)([7]).

ثانيها: رواية الحسن بن زياد عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (إن رجلا أتى أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال: يا أمير المؤمنين إنِّي أصبت مالا لا أعرف حلاله من حرامه، فقال له: اخرج الخمس من ذلك المال، فإنَّ الله عز وجل رضي من ذلك المال بالخمس، واجتنب ما كان صاحبه يُعلم).

ثالثها: ما أرسله الصدوق رحمه الله، قال: (جاء رجل إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال: يا أمير المؤمنين أصبت مالاً أغمضت فيه أفَلي توبة؟ قال: ائتني بخمسه فأتاه بخمسه فقال: هو لك، إن الرجل إذا تاب تاب ماله معه).

رابعها: موثقة السكوني، عن أبي عبد الله (عليه السلام)، قال: (أتى رجل أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال: إني كسبت مالاً أغمضت في مطالبه حلالاً وحرامًا، وقد أردت التوبة ولا أدري الحلال منه والحرام، وقد اختلط عليَّ، فقال أمير المؤمنين (عليه السلام): تصدق بخمس مالك فإنَّ الله قد رضي من الأشياء بالخمس، وسائر المال لك حلال).

وهذه الرواية رواها المشائخ الثلاثة، والبرقي في المحاسن، والمفيد في المقنعة([8]).

خامسها: موثقة عمار عن أبي عبد الله (عليه السلام): (أنه سئل عن عمل السلطان يخرج فيه الرجل، قال: لا، إلا أن لا يقدر على شيء يأكل ولا يشرب ولا يقدر على حيلة، فإن فعل فصار في يده شيء فليبعث بخمسه إلى أهل البيت)([9]).

سادسها: ما عن المفيد في الزيادات أنه أرسل عن الصادق (عليه السلام): عن رجل اكتسب مالاً من حلال وحرام، ثم أراد التوبة من ذلك، ولم يتميّز له الحلال بعينه من الحرام، فقال عليه السلام: (يخرج منه الخمس وقد طاب، وإن الله تعالى طهَّر الأموال بالخمس)([10]).

يتبع =

---

[1] - الخمس من مباني العروة الوثقى، الطبعة الأولى: ص102.

[2] - راجع جواهر الكلام: 16/70، (وجوب الخمس في المال المختلط بالحرام).

[3] - راجع جواهر الكلام: 16/72.

[4] - جواهر الكلام: 16/71.

[5] - مدارك الأحكام، مؤسسة آل البيت، ط1: 5/388 (وجوب الخمس في المال المختلط بالحرام).

[6] - راجع المستمسك، الحكيم، مطبعة الآداب، النجف: 9/490.

[7] - الوسائل: ب3 من أبواب ما يجب فيه الخمس ح 6.

[8] - كما ذكر صاحب الوسائل بعد إيراده هذه الرواية.

[9] - الوسائل: ب10من أبواب ما يحب فيه الخمس ح 1-3-4-2.

[10] - المقنعة،الشيخ المفيد، جامعة المدرسين، قم: ص283، وروى في الوسائل نحوه بتفاوت: ب10 من أبواب ما يجب فيه الخمس ح4.

.

تتمة مقال = المال الذي يتعذر إيصاله لمالكه

إذا عرفت هذا فاعلم أن الأقوى ما ذهب إليه المشهور لوجود المقتضي لذلك وفقد المانع. أما وجود المقتضي فلظهور هذه الروايات في المطلوب، ولصحة سند بعضها بنفسه كصحيحة عمار بن مروان، وانجبار الضعيف منها بالعمل، وأما انتفاء المانع فلأن المناقشات المحكية أو التي يمكن أن تدَّعى كلها مدفوعة، وهي أمور:

أولها: أن الخمس ليس صريحًا في كونه على نحو الخمس المتعلّق بالغنيمة والمعدن والكنز، ولا سيما بعد التصريح بالتصدّق في رواية السكوني، لقوله عليه السلام فيها: (تصدّق بخمس مالك).

وفيه: أنه بعد الجمع في صحيحة عمار بين ما يخرج من المعادن والبحر والغنيمة والكنوز، وبين الحلال المختلط بالحرام، يكون صريحًا أو بمنزلة الصريح في المطلوب، لأنَّه (عليه السلام) جعل الخمس في هذه الأمور كلّها على نحو التشريك.

هذا مضافًا إلى ظهور الخمس في الخمس بالمعنى المعروف، إما لدعوى كونه حقيقة فيه عند المتشرّعة في عهد الصادقين (عليهما السلام)، وإما لمعهوديته معهوديةً توجب انصرافه إليه كما اعترف به صاحب الجواهر في جواهره([1])وشيخنا المرتضى في الملحقات وسيدنا الأستاذ في مجلس الدرس([2])، وحينئذ يتعيّن التصرف بقوله (عليه السلام) في رواية السكوني: (تصدق بخمس مالك) بحمله عليه لأظهريته، ولا سيما بملاحظة ما قيل من أنَّ الخمس صدقة بالمعنى الأعم، وأنه أطلق عليه كثيرًا كما في الملحقات وإن كنا لم نتحقّقه.

ولو فرض عدم إمكان التصرف بالتصدّق بحمله على الخمس، فلا بدّ من تقديم غيرها عليها لأصحيّته سندًا كصحيحة ابن مروان أو لجبره بالعمل كسائر الروايات.

ثانيها: أنَّ أكثرها ضعيف.

وفيه: أنَّه مسلَّم ولكن ذلك لا يضرّ بعد كون بعضها صحيحًا بالمعنى الأخصّ والبعض الآخر صحيح بالمعنى الأعمّ، ونعني بكونه صحيحًا بالمعنى الأعم انجباره بالعمل.

ثالثها: أنه يحتمل أن تكون قصة الرجل مع أمير المؤمنين واقعة واحدة، وعليه فتكون رواية ابن زياد ومرسلة الصدوق ورواية السكوني رواية واحدة، حيث إنَّ رواية السكوني اشتملت على الأمر بالتصدق بخمس المال، فتكون هذه الروايات مضطربة.

وفيه: أنَّ ذلك محتمل ولكنه خلاف الظاهر، وكل احتمال يكون على خلاف الظاهر لا دليل على حجيته وإن بلغ مرتبة الظن فضلاً عما إذا لم يبلغها، ولو بني على الاعتناء بمثل هذه الاحتمالات والعمل بها للزم الهرج والمرج في الفقه، هذا مضافًا إلى أنَّ اشتمال رواية السكوني على الأمر بالتصدّق بخمسه قرينة واضحة على التعدّد، لاستبعاد كونه من النقل بالمعنى، فإنَّ الراوي إذا نقل الرواية بالمعنى لا يتجاوز تبديل الألفاظ الواضحة بمثلها.

رابعها: أنَّ رواية السكوني التي رواها المشائخ الثلاثه والمفيد ورواها البرقي في المحاسن، لم يجدها صاحب المستند في نسخة المحاسن الموجودة عنده([3]).

وفيه: أنَّ رواية المشائخ والمفيد لها تكفي في ثبوتها، وعدم وجودها في نسخة المحاسن الموجودة عنده لا يضر، وبالجملة بعد رواية غيره لها عنها ينحصر التشكيك في نسخته.

خامسها: أنَّ موثقة عمار المتضمِّنة لتولية أعمال السلطان ظاهرة في كون كل ما بقي عنده من كسبه المحرم، وحينئذ فلا يكون موردها الحلال المختلط بالحرام، وعليه فهي أجنبية عمّا نحن فيه.

وفيه: أنَّه لو سلِّم، كان غيرها من النصوص كافيًا في المطلوب، انتهى.

والظاهر أنَّ الحكم المذكور آنفًا لا يختلف باختلاف السبب، فلا يفرق بين كون اختلاطه بسبب التسامح واللامبالاة كما هو ظاهر قول السائل (أغمضت في مطالبه) وبين كونه بسبب التعمد كما هو شأن اللصوص والمرابين والمقامرين.

النوع الخامس: الاختلاط المتميز السبب، وله أمثلة:

منها: ما لو لم يخرج زكاة ماله مدّة العمر فاختلطت بأمواله الأخرى كما لو باع الإبل بالضأن، وباع الضأن بالغلَّات فتعلّقت الزكاة فيها وهي في ملكه، وباع الغلَّات بإحدى النقدين، ولم يعرف مقدار ما وجب عليه من زكوات هذه الأمور، وفي هذه الصور لا تطهر أمواله بإخراج خمسها، وإن احتمل كون الزكاة بمقداره، بل لا بد من تطهيرها بإخراج الزكاة، فيضمن القدر المتيقن المثلي بمثله، ويضمن ما عداه بالقيمة، ولا بد هنا من مراجعة ولي الزكاة، ولا فرق في ذلك بين ما لو تلفت جميع أمواله بعد هذه التقلبات أو بقي شيء منها، وفي الاكتفاء بإخراج ما يتيقنه من كل صنف وجه، لكون المورد من باب دوران الأمر بين الأقل والأكثر المتباينين.

ومنها: ما لو غصب شاةً أو سرقها أو دخلت في قطيعه ولم يعرف صاحبها، ثم توالدت وطال الزمان وتعذّر عليه تمييزها وتمييز ما ولد منها، فإنَّه يجري عليها حكم مجهول المالك.

ومنها: ما لو وجد شاة ضالّة وأهمل التنذير عليها، ثم توالدت واختلطت وتعذّر عليه التمييز، فإنَّه يجري عليها حكم اللقطة التي يتعذّر التنذير عليها، إما لنسيان الصفات، وإما لارتحاله في الصحراء من مكان إلى مكان.

والسبب في عدم تطهير هذا المال الحلال المختلط بالحرام في هذه الأمثلة الثلاثة وإن كان الحرام يقارب الخمس أو ينقص عنه أو يزيد، هو أنَّ هذه الأموال لها جهة معلومة تضاف إليها إضافة الملك، فتكون نظير معلوم المالك.

النوع السادس: المال الذي يكون في الذمة، وله صور من حيث المالك:

أولها: أن يكون معلوم المالك تفصيلاً: وحكمه واضح، فإنَّ التخلص منه يكون بمراجعة مالكه، سواء كان معلوم الجنس والمقدار أو مجهولهما كلاً أو بعضًا، فإنَّه إن كان معلوم الجنس والمقدار ضمنه له بمثله إن كان مثليًا، وبقيمته إن كان قيميًا.

وإن كان معلوم الجنس مجهول المقدار تعين الأقل للأصل، ولو قيل بالاحتياط لأصالة اشتغال الذمّة لكون الشك في فراغها فله وجه، ولكن أصالة البراءة حاكمة على أصالة الاحتياط.

وإن كان مجهول الجنس والمقدار تعيّن الصلح، وفي الاقتصار على الأقل أو تعيّن الاحتياط: وجهان.

ولو ادّعى عليه الأكثر، فإنَّ أقام البينة قضي له بها، وإلا كان على الضامن اليمين لنفي العلم بالأكثر، لا لنفيه واقعًا، لجهله به ولأنَّه منفي بالأصل، ولو امتنع الغريم من قبول ما دفعه، دفعه للحاكم، ولو امتنع عن الصلح تولاه الحاكم الشرعي.

ثانيها: أن يكون معلوم المالك في عدد محصور: وفي وجوب إرضاء الجميع - وهو الاحوط لأنَّه مقتضى أصالة الاشتغال - أو توزيعه عليهم بالسوية لقاعدة العدل والإنصاف نظير درهم الوَدَعي، أو القرعة، احتمالات.

ثالثها: أن يكون مجهول المالك: ويجب الرجوع فيه إلى الحاكم الشرعي، فإن كان معلوم الجنس والمقدار ضمنه بمثله إن كان مثليًا وبقيمته إن كان قيميًا.

وإن كان معلوم الجنس مجهول المقدار اكتفى بالأقل للأصل، وإن كان مجهول الجنس والمقدار تعين الصلح، وفي الاقتصار على الأقل أو تعيّن الأكثر وجهان، كما تقدم.

حكم المال المجهول المالك

إذا عرفت ما قدمناه، فاعلم أنَّ القدر المتيقن من النصوص أنَّ المال المجهول المالك الذي يجب التصدّق به أمران:

الأول: المال الذي يجهل صاحبه جهلاً مطلقًا كالدراهم التي وجدها مدفونة في بيت من بيوت مكة، وكالمال الذي أودعه اللصوص، وكالمال الذي اكتسبه أيام ولايته لبني أمية كما هو مورد موثقة إسحاق ورواية المشايخ الثلاثة، ورواية ابن أبي حمزة، وصحيحة داوود، وصحيحة زرارة الأولى وهي أول رواية من مجموع الروايات، والرواية الثالثة والرابعة، والتاسعة والعاشرة، وكلها ناظرة للأعيان الخارجية.

الثاني: المال الذي يُعرف صاحبه شخصيًا ولا يُعرف نسبه ولا بلده، كالمتاع الذي نسيه رفيقهم معهم، وكالدَّين الذي لرجلٍ عليه، وكالحق الذي لرجلٍ عليه، وكأجرة الأجير، وكالمال الذي مات عنه الرجل الذي كان عنده في الفندق، وكالمال الذي صار في يده لرجلٍ ميت لا يعرف له وارثًا، وهذه الرواية تكون مما نحن فيه إذا كان يعرفه، كما هو مورد مصحّحة يونس، وصحيحة زرارة الثانية، وصحيحة معاوية، وروايتي هشام بن سالم عن صاحبي الخان، ورواية محمد بن القاسم، وهي الثانية والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة والحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة، وهذه الروايات كلها ناظرة للأعيان الخارجية، ما عدا صحيحتي زرارة ومعاوية فإنَّ موردهما الدَّين، وهو أعيان ذمّية، ولفظ الحق في الثانية ظاهر فيه.

وأما المال الذي في الذمة والذي يجهل صاحبه جهلاً مطلقًا فلم تتعرض له النصوص.

ويمكن الاستدلال لوجوب التصدّق به بأمور:

أولها: ما دلّ على وجوب التصدّق بالأعيان الخارجية التي يجهل مالكها جهلاً مطلقًا بدعوى عدم الفرق.

ثانيها: ما دلّ على وجوب التصدّق بالدَّين بالأولوية، فإنَّ ما دلّ على التصدّق به مع معرفة الدائن، يدل على ذلك مع الجهل به بالأولوية لأنَّه دين يجهل صاحبه، فيكون داخلاً في صحيحة زرارة وصحيحة معاوية.

ثالثها: ما استدل به في الروضة([4])لمشروعية التصدّق بالدَّين وتبعه غيره، من أنَّ التصدّق به إحسان محض، فإن ظهر المالك ولم يرض به ضمنه له، لأنَّ التصدّق أنفع من بقاء المال المعرّض لتلفه.

وفيه: أنَّه استحسان محض لا دليل على حجيته، وأنَّه إذا بقي في ذمة الميسور الثقة ليس معرّضًا للتلف، اللهم إلا أن نقول إنَّه أيضًا معرّض للتلف باحتمال طروّ الفقر أو الجحود منه أو من ورثته.

والتحقيق: أنَّه فرق بين الدَّين وبين الأعيان الخارجية، فإنَّ الدَّين لا يتشخّص إلا بقبض الغريم، فالتصدق به محتاج إلى عملين وكل منهما مفتقر إلى الولاية:

أولهما: عملية الإفراز. ولا دليل على تشخّصه بإفراز المديون.

وثانيهما: عملية التصدّق. وهذا بخلاف العين الخارجية، ولكن بعد مراجعة الحاكم الشرعي الذي هو ولي على ذلك، يرتفع هذا الفرق.

وأما المال الذي يعرف صاحبه اسمًا ونسبًا وتشخّصًا ولكنَّه مجهول البلد، فإنَّ النصوص لم تتعرض له بخصوصه، نعم هو متحد ملاكًا مع ما أسلفناه كما هو واضح.

ودعوى الفرق عهدتها على مدّعيها فإنَّ الأجير والرفيق يُعرَف اسمه وشخصه ويُجهل نسبه وبلده، ومثال ما نحن فيه من يعرف اسمه ونسبه مثلاً ويجهل شخصه وبلده، وكلاهما يشتركان من حيث عدم التمكن من معرفته ليدفع إليه حقه.

انتهى المقال

---

[1] - جواهر الكلام: 16/72 حيث قال: [ونحوها ظهور لفظ الخمس في النصوص والفتاوى في ذلك بل لعله حقيقة شرعية فيه].

[2] - راجع المستمسك: 9/489، حيث قال: [وظاهر إطلاق الخمس في غيره الظاهر في الخمس المقابل للزكاة].

[3] - الموجود في مستند الشيعة، للمحقق النراقي، مؤسسة آل البيت، قم، ط1: كتاب الخمس: 10 ص41: قوله [بل وكذا رواية السكوني، حيث إن الموجود في النسخ المصححة التي رأيت من بعض كتب الحديث: (في مطالبه حلال وحرام). وعلى هذا، فيمكن أن يكون متعلق الإغماض محذوفًا، ويكون (في مطالبه) متعلقًا بقوله (حلال

وحرام)، أي اكتسبت مالا وأغمضت، وفي مظان طلبه حلال وحرام، ولم أدر الحلال من الحرام في المطالب، فاشتبه لأجله ما اكتسبته، فأمر عليه السلام بأداء خمس المكتسب. بل يجري هذا الاحتمال على ما في أكثر نسخ كتب الفقه وبعض نسخ الحديث المصححة أيضا من نصب الحلال والحرام، فيمكن كونهما حالين من المطالب]اه.

[4] - الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية، الشهيد الثاني، تحقيق كلانتر، قم، ط1، 1410هـ: 4/18.

ابن الإنسان في الإنجيل

الشيخ حاتم إسماعيل

الشيخ حاتم إسماعيل *

إن كلمة [ابن الإنسان] من الكلمات التي تكرّر ورودها في الأناجيل الأربعة، إلى حدّ قد لا يمر إصحاح (فصل), أو صفحة دون ورودها فيها، وقد ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بمفهوم الملكوت الوارد في الأناجيل.

ومن المتسالم عليه بين المسيحيين، أنه أريد بها في كافة موارد استعمالها شخصُ السيد المسيح (عليه السلام)، حتى صارت من أهم ألقابه في الذهن المسيحي، ولم نرَ أحدًا منهم أشار, أو احتمل إرادة غيره منها في أي مورد من الموارد.

ولقد اتفق المسيحيون على أن السيد المسيح (عليه السلام) هو الذي اختار هذا اللقب لنفسه، وأنه كان أحب الألقاب إلى نفسه الشريفة، حتى أنه [عندما كان يخاطب بلقب المسيح كان يستبدله بلقب ابن الإنسان][[i]].

وقد فضّلت الجماعة المسيحية الأولى هذا اللقب, على سائر الألقاب التي أطلقت عليه (عليه السلام), من أمثال الربّ وابن الله وغير ذلك(

[2]).

وفي هذا المجال تطرح أمام الباحث عدّة أسئلة، لا بدّ من معالجتها، والوقوف عندها، في محاولة معرفة ما تنطوي عليه هذه الكلمة، وما ترمي إليه، وأهم هذه الأسئلة هي:

1- ما هو المعنى المراد من كلمة ابن الإنسان؟

2- لماذا أصرّ السيد المسيح (عليه السلام) على استخدامها في مختلف الموارد، مفضلاً لها على سائر الألقاب التي أطلقت عليه؟

3- وهل السيد المسيح (عليه السلام) هو المراد منها حصرًا، في كافّة الموارد المذكورة في الأناجيل، أم أنها تدل على غيره من الناس؟ وعلى الفرض الثاني لا بد من مطالعة النصوص، لنتبين ما إذا كانت تدل أو تشير إلى شخص أو أشخاص معينين أو لا؟

أولا: معنى ابن الإنسان:

مما لا شك فيه أن كلمة [ابن الإنسان] تعني - بحسب المعنى المتبادر منها - نفس معناها اللغوي، وهو الكائن البشري نفسه، ولا تحتمل أيّ معنى آخر، ما لم تقم قرينة خاصة تدل على خلاف هذا المعنى اللغوي.

وقد حرص السيد المسيح (عليه السلام), على استخدام هذا اللقب دون سواه, في كافة الموارد، التي تحدّث فيها عن نفسه الشريفة، كما أشرنا إليه وسيأتي.

إنّ صاحب التفسير الحديث للكتاب المقدس قد أفاض في الحديث عن دلالات هذه الكلمة في الأناجيل الأربعة، فقال ما حاصله: [إن عبارة [ابن الإنسان] في اللغتين العبرية والآرامية تعني ببساطة إنسانًا أو بشرًا، وتعني في الغالب إنسانًا ضعيفًا بالمقارنة مع الله تعالى] ([3]).

ولكن الكاتب ناقَضَ نفسه في نفس الكتاب، حيث يقول: [والقول بأنها جاءت هنا بمعناها الأساسي لتعني الإنسان بوجه عام إنما هو قول ليس له أي معنى]([4])، دون أن يذكر وجهًا لدعواه هذه.

ومن الظاهر أنه لا يمكن قبول هذا الادّعاء، لعدم استناده إلى أي دليل، مهما كان واهيًا، ولا تساعد عليه أيّة قرينة لفظية أو غيرها، ويمكن أن يستشعر عدم اقتناع الكاتب نفسه به، ولذلك أرسله إرسال المسلمات من دون ذكر وجه أو تبرير, خصوصًا بعدما تقدّم معناها منه نفسه.

ثانيا: علة استخدام المسيح لها:

وأما إصراره (عليه السلام) على استخدام هذا اللقب, وتفضيله على سواه من الألقاب والنعوت، التي كانوا يطلقونها عليه, حتى إنه كان إذا خوطب بلقب [المسيح] استبدله مستخدمًا في جوابه لقب ابن الإنسان([5])، فهو راجع بلا شك إلى أنه (عليه السلام) كان يريد التأكيد على بشريته, وأنه إنسان كسائر الناس, لا يختلف عنهم في طبيعته وحقيقته, وهو لا يخلو من دلالة على تزييف وإبطال دعوى ألوهيته, التي ظهرت إرهاصاتها منذ بداية دعوته الشريفة, واستمرّت بقوّة, لم تخلُ من العنف في كثير من الأحيان بعده.

وعلى ذلك، فيكون تأكيده على نعت نفسه بابن الإنسان، متوافقًا مع وصيته إلى أصحابه، في آخر رحلة له إلى أورشليم، حيث قال لهم: [اسهروا وصلّوا لئلا تدخلوا في تجربة. أما الروح فنشيط، وأما الجسد فضعيف]([6])، وإلا لم يكن بحاجة للتأكيد على أنه ذو بُعدين هما الروح والجسد, كما هو الحال في جميع الناس.

وقد شهد علماء اللاهوت المسيحي أنه كان (عليه السلام) يستخدم هذا اللقب للدلالة على نفسه، مستفيدًا من الكلام الوارد في سفر دانيال، والذي يتحدّث عن ابن الإنسان, والذي سوف يأتي ويملك في آخر الزمان([7]).

والملاحظ أن كلام دانيال يتحدث عن مُلك أرضي في آخر الزمان، يُقيمه موجودٌ بشري، ويُنفّذ أحكام الله تعالى ووصاياه، قال دانيال: [كنت أرى في رؤى الليل وإذا مع سُحب السماء مثل ابن إنسان أتى وجاء إلى القديم الأيام فقرّبوه قدامه، فأعطي سلطانًا ومجدًا وملكوتًا لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة. سلطانه سلطان أبدي ما لا

يزول وملكوته ما لا ينقرض... والمملكة والسلطان وعظمة المملكة تحت كل السماء تعطى لشعب قديسي العلي. ملكوته ملكوت أبدي وجميع السلاطين إياه يعبدون ويطيعون][8].

وفي محاولة لتطبيق عنوان ابن الإنسان الوارد في سفر دانيال على السيد المسيح (عليه السلام)، وإثبات أنه هو الموعود بإقامة الملكوت في آخر الزمان, سعى كتّاب الأناجيل والشرّاح والمفسّرون بكل ما أوتوا من قوة إلى التوفيق بينهما، قال في تفسير الكتاب المقدس: [كان اللقب [ابن الإنسان] يشير إلى المسيا، هذه بدون شك، هي الناحية التي أكّدها الربّ عند استعمال اللقب، وبإطلاق النسب على نفسه، كان يشهد أنه المسيا][9].

ثالثا: هل ابن الإنسان واحد؟:

إن حصر مفهوم ابن الإنسان بالسيد المسيح (عليه السلام) لم يكن خيارًا موفّقًا, ذلك أنه يؤدي إلى محاذير لا يمكن الالتزام بها, من لزوم التناقض والتهافت في نصوص الأناجيل, بالإضافة إلى عدم استناده إلى مبررات موضوعية وواقعية, تجمع بين قداسة النص وصحة الانطباق عند المسيحي.

وقد نشأت هذه الإشكالية من استئناس المسيحيين, وتسالمهم على أن مقيم الملكوت هو السيد المسيح (عليه السلام), وأنه هو المسيا الموعود في آخر الزمان, وقد بحثنا مسألة الملكوت في دراسة سابقة, وأثبتنا هناك أن المسيح (عليه السلام) مجرّد مبشّر بها, وشاهد عليها, وداع إلى قبولها, والإيمان بمقيمها حين صدعه بالأمر.

إن ملاحظة نصوص الأناجيل والتأمل في مضامينها, يدل على أن كلمة [ابن الإنسان] الواردة فيها تعني, بعد الفراغ عن إرادة المعنى اللغوي المتقدّم, وإثبات أن من تطلق عليه مجرد كائن بشري, فيه من مواطن الضعف والقوة ما يقتضيه كونه موجودًا بشريًا، في مقابل صفات الكمال المطلق، والخاصة بالذات الإلهية المقدسة، بمعنى أن من يكون إنسانًا لا يمكن أن يتّصف بصفة الألوهية بأي حال من الأحوال، تعني إرادة شخصين منها أو أكثر بحسب موارد استعمالها في الأناجيل:

أحدهما: السيد المسيح (عليه السلام).

والآخر: مقيم الملكوت الموعود.

فإذا أمكن التفكيك بين الشخصين - وهو ما ندّعي أنه ظاهر في الأناجيل كما سنرى - أمكنت قراءة الأناجيل، قراءة موضوعية، وانسجمت مضامينها، دون أن نضطر إلى الالتزام بالتهافت بينها، ونبحث بالتالي عن تأويلات بعيدة، وتفسيرات فاسدة، في محاولة التوفيق بين هذه المضامين.

إلا أنه لا بد من الإشارة أولاً، إلى أن إشكالية تعميم إرادة السيد المسيح (عليه السلام) من سائر النصوص الواردة في ابن الإنسان، قد نشأت، بحسب الظاهر, من القراءة السطحية لإنجيل يوحنا، والذي يختلف في صياغته، والهدف من كتابته, عن الأناجيل الثلاثة الأخرى، حيث توحي هذه القراءة له بذلك، وإن كانت قراءته بدقّة وعمق

لا تساعد على هذه الدعوى كما سنرى.

والظاهر أن الأمر الذي أوحى لهم بهذا الفهم هو أن الجماعة المسيحية الأولى قد كانت في بداياتها مقتصرة على اليهود الذين آمنوا بصدق دعوة السيد المسيح (عليه السلام) بحسب الأناجيل, والتي دلّت على أنه لم يرسل لغير بني إسرائيل، وهو ما أمر به تلاميذه ورسله. ومن المعلوم أن اليهود كانوا يعيشون تحت سيطرة الرومانيين آنئذ، وقد ملكوا عليهم كافة شؤونهم، بما فيها الشؤون الدينية نفسها, فقد أمسكوا بزمام الأمر كله, حتى صار تنصيب رئيس كهنتهم وعزله, بيد الرومانيين لا بأيديهم.

وهذا ما جعلهم ينتظرون مجيء المسيا, الذي سيقيم العدل بين الناس في آخر الزمان، حسب ما تدل عليه نبوءات العهد القديم، وكانوا على قناعة تامة بأن مقيم الملكوت هذا سيكون من بني إسرائيل، ولم يخطر في ذهن أحد منهم أن يكون من غير بني إسرائيل، وبعبارة أدق لا يستطيعون تقبل هذه الفكرة، رغم معرفتهم بها حق المعرفة.

وهذا بالحقيقة هو ما دفعهم إلى محاربة السيد المسيح (عليه السلام) وتكذيبه، ومحاولة قتله، عندما أظهر لهم حقيقة الأمر، وأنه مجرد شاهد للحقّ ومبشر به، بعدما كان الآلاف منهم قد اتبعوه وآمنوا به، اعتقادًا منهم أنه هو المخلص الموعود, والذي بلغ ذروة الصراحة عندما قال لهم: [... لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى أمة تعمل أثماره]([10]).

وأما الذين اتبعوه بعد ارتفاعه ورحيله، فإنهم سرعان ما وقعوا تحت تأثير بولس الرسول، الذي دخل المسيحية بعدما يئس من ضرب أنصارها بالقوة والقهر من الخارج، كما هو معلوم من سيرته ودعوته التبشيرية التي نأى بها عن اليهود، وتوجّه إلى الوثنيين ليدخلوا في الدين الجديد، فعمل على إثبات أن الخلاص لا بد وأن يكون بشخص السيد المسيح (عليه السلام)، كونه إسرائيليًا قبل كل شيء، ولهذا فقد حاول بولس تأويل النصوص التوراتية والإنجيلية، فأعطى مداليل نبوءاتها بُعدًا روحانيًا خالصًا، لا يمس واقع حياتهم الاجتماعية والسياسية، وغير ذلك مما يرتبط بواقعهم المعاش فعلاً, حتى في ما يرتبط بمعنى الملكوت الموعود.

لقد وقعت التعاليم البولسية هذه موقع القبول والرضا، لدى الأجيال التالية، ولم تعد قابلة للتشكيك والنقاش، بعدما قويت شوكته، وكثر أتباعه وأنصاره، وبعدما أفل نجم تلاميذ السيد المسيح (عليه السلام)، وضاعت مواعظهم وتراثهم، وهذا ما أدى إلى حصول الالتباس في فهم المسيحيين لمدلول كلمة [ابن الإنسان] على مر التاريخ، وأوقعهم في كثير من التناقض، والتعقيد في فهم النصوص الإنجيلية، التي أرادوا أن يفسروها طبقًا لخلفياتهم الذهنية، والتي فرضت نفسها على كتاباتهم المقدَّسة، خصوصًا وأن هذه القناعات تلامس وجدانهم وعقائدهم السابقة التي تربّوا عليها, وإن كانت مخالفة لتعاليم الأنبياء, ولعقائد اليهود جملةً وتفصيلاً.

مع أن مقتضى الالتزام الديني أن يعتمد تأسيس القناعات الدينية على النصوص المقدسة لا العكس, خلافًا لما فعله هؤلاء.

يتبع =

---

[i] - التفسير الحديث للكتاب المقدس، شرح إنجيل متى، ص35.

[2] - العهد الجديد بتعليق الآباء اليسوعيين، ص58 تعليق رقم 15.

[3] - التفسير الحديث للكتاب المقدس، إنجيل متى، ص35، بتصرف.

[4] - التفسير الحديث للكتاب المقدس، إنجيل متى، ص171، بتصرف.

[5] - التفسير الحديث للكتاب المقدس، إنجيل متى، ص35.

[6] - إنجيل متى: 26/41.

[7] - لاحظ مثلا: الدفاع عن المسيحية، الإنجيل بحسب متى، ص294.

[8] - سفر دانيال: 27-7/13.

[9] - تفسير الكتاب المقدس، ج5، ص37.

[10] - إنجيل متى: 21/43.

.

تتمة مقال = ابن الإنسان في الإنجيل

ابن الإنسان إنسان:

ذكرنا أن السيد المسيح (عليه السلام) قد أطلق عبارة [ابن الإنسان], وأراد بها نفسه الشريفة تارة, وشخصًا آخر تارة أخرى, ولكن ذلك من باب التطبيق على بعض معانيها, وليس لانحصار المعنى بهما, بل هو قد استعملها في معناها العام الشامل لكل إنسان, من حيث حقيقته وطبيعته.

ولا يخفى أنه (عليه السلام) أراد بهذا الاستعمال أن يبيّن انه ليست له أيّة خصوصية تميّزه عن سائر الناس من هذه الجهة, كما أراده المسيحيون, ذلك أن الإنسان قادر على اجتراح المعجزات, وان يفعل الأعاجيب, من حيث هو إنسان, شرط أن يُحسن علاقته بالله تعالى.

فقد قُدّم له مفلوجٌ ذات مرة, وكان مطروحًا على فراشه, وطلبوا منه أن يشفيه, فقال له يسوع [ثق يا بني. مغفورة لك خطاياك], فاعترض عليه قوم من الكتبة, وقالوا في أنفسهم هذا يجدف, فقال لهم: [لماذا تفكرون بالشرّ في قلوبكم, أيّما أيسر أن يقال مغفورة لك خطاياك. أم أن يقال قم وامش, ولكن لتعلموا أن لابن الإنسان سلطانًا أن يغفر الخطايا][[1]].

ولا شك في أنه (عليه السلام) أراد أن يبيّن قاعدة عامة, وهي أن الدعاء وحسن العلاقة بالله تعالى تمكّن الإنسان من أن يقوم بكل ذلك.

ويدل على هذه الحقيقة ويفسرها قول كاتب يوحنا: [وأعطاه سلطانًا أن يدين أيضًا لأنه ابن الإنسان][[2]].

حيث جعل ميزان سلطان الإدانة كونه إبنًا لإنسانٍ وليس شيئًا آخر, ولذلك ذكرها بصورة التعليل.

ولكن ذلك لا يعني عدم دلالة الأناجيل الأخرى على هذا العموم, وإن كانت أقل صراحة في الدلالة على ذلك, فإن قول كاتب إنجيل متى في ذيل الحديث من أن [الجموع قد تعجّبوا ومجّدوا الله الذي أعطى الناس سلطانًا مثل هذا] يكشف عن أن الجموع قد فهموا منه العموم, وأنه قانون ثابت, لكنه متوقف على تحقق مقتضياته وشروطه.

ومما يدل على هذه الحقيقة, أنه قد وقعت معه (عليه السلام) عدة حوادث وتعليقات منه, تدل على ثبوت هذه القاعدة وتؤكدها, نذكر بعضها هنا:

1- لقد مشى على الماء في البحر, ولما رآه تلاميذه, وكانوا في السفينة, فوجئوا بذلك, وطلب منه بطرس أن يمشي معه على الماء, في ما يبدو أنه محاولة للتأكّد من صحة ما رأوه, [فقال تعال. فنزل بطرس من السفينة ومشى على الماء إلى يسوع, ولكن لما رأى الريح شديدة خاف وإذ ابتدأ يغرق صرخ قائلاً يا ربّ نجني, ففي الحال مدّ يسوع يده وأمسك به وقال له يا قليل الإيمان لماذا شككت][[3]].

فقد ربط (عليه السلام) القدرة على المشي فوق الماء بإيمان المرء ويقينه, وعدمها بخوفه وشكّه, كما هو ظاهر.

2- وجاءه رجل وطلب منه أن يشفي ابنه، وقال له: [وأحضرته إلى تلاميذك فلم يقدروا أن يشفوه, فأجاب يسوع وقال أيها الجيل غير المؤمن الملتوي. إلى متى أكون معكم. إلى متى أحتملكم. قدّموه إليّ ها هنا], ولما شفاه سأله تلاميذه عن سبب عدم قدرتهم على شفائه، [فقال لهم يسوع لعدم إيمانكم. فالحق أقول لكم لو كان لكم إيمان مثل حبّة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل ولا يكون شيء غير ممكن لديكم][[4]].

وهذه القضية ظاهرة بل صريحة في أن الإنسان قادر، من حيث هو إنسان، على فعل ذلك، وأنه مركوز في أذهان الناس كما يدل عليه قول الرجل: [أحضرته إلى تلاميذك الخ..] وكذلك القاعدة التي أعطاها السيد المسيح (عليه السلام) نفسه.

3 - ونظر مرة إلى شجرة تين [وجاء إليها فلم يجد شيئًا إلا ورقًا فقط. فقال لها لا يكن منك ثمر بعد إلى الأبد. فيبست التينة في الحال. فلما رأى التلاميذ ذلك تعجبوا قائلين كيف يبست التينة في الحال، فأجاب يسوع وقال لهم. الحق أقول لكم إن كان لكم إيمان ولا تشكّون فلا تفعلون أمر التينة فقط بل إن قلتم لهذا الجبل انتقل وانطرح في البحر فيكون، وكل ما تطلبونه في الصلاة مؤمنين تنالونه]([5]).

نستخلص من هذه النصوص، أن اجتراح المعجزات والأعاجيب مقدور للإنسان، من حيث هو إنسان، شرط الإيمان، وصدق النية، والإخلاص في العلاقة مع الله تعالى.

إن هذا النحو من الكلام، خصوصًا المشتمل على لفظ [ابن الإنسان]، ليس ناظرًا إلى شخص بعينه، وإنما يؤسس إلى قاعدة عامة، تشمل كل إنسان متصف بصفة الإيمان والإخلاص، فهي على وزان الحديث القدسي، القائل: [عبدي أطعني تكن مثلي تقول للشيء كن فيكون].

المسيح ابن الإنسان:

لقد وردت عبارة ابن الإنسان وأريد بها السيد المسيح (عليه السلام) في جملة من الموارد، وهي عبارةٌ كثيرًا ما تردّدت على لسانه (عليه السلام)، وكانت غايته من استعمالها أن يبين للناس أنه واحد منهم، لا يختلف عنهم من حيث طبيعته الإنسانية، الأمر الذي يكشف عن أنه كان في مقام تزييف مقولة دعوى طبيعته الإلهية وإبطالها، وهي المقولة التي حاول الشياطين - الذين كان يخرجهم من الناس - أن ينسبوها إليه، ويكرّسوها في أذهان الناس على العموم.

كما أن طبيعة المحاورات التي جرت بينه وبين تلاميذه، تدل على أنهم كانوا يعرفونه كإنسان كذلك لا أكثر، بل كان سائر الناس يرونه كذلك، خلافًا لما يعتقد به المسيحيون من إلهيته، والذي انتشر بينهم بعد ارتفاعه عنهم، وبعد انتشار الدين الجديد في أوساط الرومانيين الوثنيين، من خلال دعوة بولس الرسول بينهم، فإنه:

1 - [لما جاء إلى نواحي قيصرية فيلبس سأل تلاميذه قائلاً من يقول الناس أني أنا ابن الإنسان، فقالوا. قوم يوحنا المعمدان. وآخرون ايليا. وآخرون ارميا أو واحد من الأنبياء، قال لهم وأنتم من تقولون أني أنا، فأجاب سمعان بطرس وقال له أنت هو المسيح ابن الله الحي]([6]).

ولكن لا إشكال في أن عبارة [ابن الله الحي] قد أضيفت إلى أصل الكلام، لغاية في نفس الكاتب، بدليل أنها لم ترد في إنجيل مرقس ولا في انجيل لوقا، فإن عبارة مرقس: [فأجاب بطرس وقال له أنت المسيح، فانتهرهم كي لا يقولوا ذلك لأحد]([7]).

وأما عبارة لوقا فهي: [فأجاب بطرس وقال مسيح الله فانتهرهم وأوصى أن لا يقولوا ذلك لأحد]([8]).

ومن الظاهر أن كلمة [المسيح] لا تحتمل معنى الإلهية الذي حملها المسيحيون عليه، إذ ليست من مبتدعات العهد الجديد، وإنما جرى التلاميذ في إطلاقها واستعمالها وكذلك سائر الناس آنئذ، وفقًا لمصطلح العهد القديم، والذي يدل على أن من تطلق عليه هو إنسان خالص، يحتمل معنى النبوة والكهانة والملك.

ويشهد لهذه الزيادة والتلاعب ما ذكره الأب سليم بسترس، فإنه بعدما ذكر الفرق بين كلام متى ومرقس، قال: [وهذا دليل على أن عبارة ابن الله الحي قد أضافها كاتب انجيل متى، معلنًا ليس إيمان بطرس في أثناء حياة يسوع، بل إيمان بطرس والرسل والكنيسة بألوهية المسيح من بعد قيامته]([9]).

وهو صريح بأن بطرس والتلاميذ لم يعتقدوا, في البداية على الأقل، أن السيد المسيح (عليه السلام) ذو طبيعة إلهية، بل كان إنسانًا كسائر الناس، أما أنهم هل اعتقدوا بإلهيته بعد ارتفاعه، كما ذكره الأب بسترس، فهو غير ظاهر، لأنه منقول عنه بحسب متى، ولو حصل ذلك فعلا لأشار إليه كل من مرقس ولوقا.

ويمكن القول أن كاتب متى قد ذكر ذلك طبقًا لاعتقاده الشخصي في طبيعة المسيح، بحيث افترض أن بطرس آمن بها بعد قيامته، ولكنه لا يصحّح زيادته على كلام بطرس وتحريفه، لأن المفروض أنه يتحدّث عن واقعة حصلت بالفعل، فالواجب عليه أن ينقلها كما حدثت, كما تقتضيه أمانة النقل، ولا يضيف إليها قناعاته الخاصة، ويفسّر النص على أساس فهمه واعتقاده.

وتستوقفنا هنا قصة انتهاره لهم، فإن كلمة [انتهرهم] تعني [زجرهم] عندما صرّحوا له بأنه المسيح، وهي تبدو غير متوافقة ولا منسجمة مع ما يريده المسيحيون منها، إذ لو كان هو المسيح الموعود بإقامة الملكوت، لم يكن لانتهاره لهم أي معنى، لأنه قد أعلن ذلك قبل هذه الحادثة، إذ ليس من المحتمل أن لا يريد إخبار الناس بحقيقته، وإلا فقدت رسالته ودعوته غايتها ومغزاها، فلا بد من حمل زجره لهم على أنهم لم يحسنوا تفسير دعوته.

وأما الفهم المسيحي لزجره فهو ناشئ من كلام متى: [حينئذ أوصى تلاميذه أن لا يقولوا لأحد أنه يسوع المسيح]([10]).

ولا إشكال في أن متى قد تصرّف في العبارة، كما رأينا حاله من قبل بغية التخفيف من وقع الزجر على الناس، ويسير بها حسب الوجهة التي يريدها الكاتب، وإلا فما هو المبرّر لاختلاف تعبيره عما ذكره كل من مرقس ولوقا.

2- وعندما طلب الفريسيون آية، أخبرهم بأنه لن تكون لهم آية إلا آية يونان النبي، قال لهم: [لأنه كما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال، هكذا يكون ابن الإنسان في قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال][[11]].

ولا إشكال في أن المراد بابن الإنسان فيها هو السيد المسيح (عليه السلام) نفسه، وقد ناقشنا هذه المقولة بالتفصيل، وأثبتنا زيفها، وعدم صحتها في كتاب [صلب المسيح في الإنجيل]، فلتراجع ثمّة.

3- وقد وردت بعض العبائر، التي تتحدث عن صلبه وموته، من قبيل القول المنسوب إليه: [وفيما هم يترددون في الجليل قال لهم ابن الإنسان سوف يسلّم إلى أيدي الناس، فيقتلونه، وفي اليوم الثالث يقوم][[12]].

وقوله: [ها نحن صاعدون إلى أورشليم وابن الإنسان يسلم إلى رؤساء الكهنة والكتبة فيحكمون عليه بالموت، ويسلمونه إلى الأمم لكي يهزأوا به ويجلدوه ويصلبوه. وفي اليوم الثالث يقوم][[13]].

وأمثال هذه العبارات التي أريد بها السيد المسيح (عليه السلام)، ولسنا الآن في مقام مناقشتها، وبيان عدم صحّتها فعلا، فإن ذلك يحتاج إلى بحث مستقل.

يتبع =

---

[1] - إنجيل متى: 1/9-8؛ مرقس:3/2-12؛ ولوقا: 18/5-26.

[2] - انجيل يوحنا: 5/27.

[3] - إنجيل متى: 25/14-31.

[4] - إنجيل متى: 14/17-20.

[5] - إنجيل متى: 18/21-22.

[6] - إنجيل متى: 13/16-16.

[7] - إنجيل مرقس: 27/8-30.

[8] - إنجيل لوقا: 18/9-21.

[9] - اللاهوت المسيحي والإنسان المعاصر، ج1 ص132.

[10] - إنجيل متى: 16/20.

[11] - إنجيل متى: 12/40.

[12] - إنجيل متى: 23-17/22.

[13] - إنجيل متى: 19-20/18.

.

تتمة مقال = ابن الإنسان في الإنجيل

ابن الإنسان والملكوت:

إلا أن السيد المسيح (عليه السلام) قد قَرَن بين مصطلح ابن الإنسان وبين الحديث عن إقامة الملكوت السماوي, وحكومة آخر الزمان, في أكثر الاستعمالات.

وهو استخدام مأخوذ مما ورد في سفر دانيال, فإنه يقول بعدما رأى الرؤيا: [وكان لما رأيت أنا دانيال الرؤيا وطلبت المعنى إذا شبه إنسان واقف قبالتي, وسمعت صوت إنسان بيت أولاي فنادى وقال يا جبرائيل فهم هذا الرجل الرؤيا, فجاء إلى حيث وقفت ولما جاء خفت وخررت على وجهي. فقال لي افهم يا ابن آدم. إن الرؤيا لوقت المنتهى](1).

ولا إشكال في أن إقامة الملكوت في آخر الزمان ستكون بيد الإنسان نفسه, بمعنى أنه مُلك أرضي وحكومة تقيم العدل على أساس قوانين السماء قبل يوم القيامة, كما يدل عليه ذيل كلام دانيال المذكور [أن الرؤيا لوقت المنتهى], وهو ما صرّح به السيد المسيح (عليه السلام) حيث ربط حكومة ابن الإنسان بتوالي الحروب والمجاعات, وتتالي الممالك في الحكم, وحصول الكوارث الطبيعية من زلازل وغيرها, بالإضافة إلى المشاكل السياسية والاجتماعية والاقتصادية, التي سيعاني الناس منها, الأمر الذي يُهيئ ظروف ادّعاء الكثيرين أنهم المسيح الموعود كذبا, ثم يأتي المنتهى(2).

إن مما يدل دلالة صريحة على أن ابن الإنسان الذي سيقيم ملكوت السماوات في آخر الزمان, وأنه يستمر إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها, ما ورد في سفر دانيال نفسه, وتقدّم كلامه الذي يقول: [كنت أرى في رؤى الليل وإذا مع سحاب السماء مثل ابن إنسان أتى إلى القديم الأيام فقرّبوه قدّامه, فأعطي سلطانًا ومجدًا وملكوتًا لتتعبّد له كل الشعوب والألسنة. سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض](3).

إلا أن النقطة المركزية في المقام هي بيان ما إن كان المراد بابن الإنسان الذي سيقيم الملكوت في آخر الزمان هل هو السيد المسيح (عليه السلام) نفسه, أم هو شخص آخر غيره, وهو مهدي آل محمد (عجل الله فرجه الشريف).

ولا بدّ أولاً من الإشارة إلى الارتباك الوارد في الأناجيل نفسها في هذا التطبيق، وهو الذي انعكس على الفهم المسيحي لهذه المسألة فيما بعد بشكل عام، وان كان التلاعب في النصوص قد حصل في العصور الأولى للتدوين بحسب الظاهر.

يقول الإنجيل أنه قد تجلّى لثلاثة من تلاميذه وهو يتحادث مع موسى وإيليا، [وفيما هم نازلون من الجبل أوصاهم يسوع قائلاً لا تُعلموا أحدًا بما رأيتم حتى يقوم ابن الإنسان من الأموات وسأله تلاميذه قائلين فلماذا يقول الكتبة أن ايليا ينبغي أن يأتي أولاً، فأجاب يسوع أن ايليا يأتي أولاً ويرد كل شيء، ولكني أقول لكم أن ايليا قد جاء ولم يعرفوه بل عملوا به كل ما أرادوا كذلك ابن الإنسان أيضًا سوف يتألم منهم، حينئذ فهم تلاميذه انه قال لهم عن يوحنا المعمدان]([4]).

ونلاحظ في هذا النص عدة أمور تتنافى مع الفهم المسيحي لفكرة ابن الإنسان وحكومة الملكوت، إذ لم يرد التعبير عن يوحنا المعمدان بأنه ايليا في أي مورد من الموارد، لا في العهد القديم ولا في العهد الجديد سوى في هذا المورد.

وهو ظاهر في انه لم يرد ذكر يوحنا المعمدان في كلام السيد المسيح (عليه السلام)، كما لم يتحدث التلاميذ عن ذلك، وإنما الذي فهم ذلك هو كاتب الإنجيل، وحمل هذا الفهم للتلاميذ، من دون أن يبرز أية قرينة تساعد على هذا الفهم, بل إن القرينة قائمة على خلافه, لأن الحديث ورد في سياق رؤيتهم محادثته مع موسى وإيليا نفسه, فلا معنى لقوله [حينئذ فهم التلاميذ الخ..], خصوصًا وأن بطرس كان من تلاميذ يوحنا المعمدان قبل مدة وجيزة, كما أنهم كانوا جميعًا معاصرين له كذلك.

ومن الواضح أن كاتب الإنجيل لم يستطع التفريق بين مقولة مجيء ايليا قبل قيام حكومة الملكوت على يد ابن الإنسان، وبين المسلَّمة التي انطلق منها وهي أن ابن الإنسان ليس سوى المسيح (عليه السلام) نفسه، فاختلط الأمر في ذهنه، إذ كيف يأتي ابن الإنسان (وهو المسيح بحسب مسلَّمته) ولما يأتي ايليا قبله، فعمد إلى التأويل المذكور، مع أن الواقع يقتضي إعادة النظر في تطبيق ابن الإنسان على السيد المسيح (عليه السلام)، وبذلك يستقيم سياق الكلام.

ولو فرضنا إرادة يوحنا المعمدان من قوله[قد جاء ولم يعرفوه] إلا أنه لا يمكن انطباقه على الفقرة الأولى [إن ايليا يأتي أولاً ويرد كل شيء]، ذلك أن يوحنا المعمدان لم يرد كل شيء كما هو معلوم، بل إن عدم معرفتهم له وعملهم كل ما أرادوه به يدل على ذلك.

وعلى كل حال, فالكلام هنا مقتبس من النبوءة الواردة في سفر ملاخي، والتي تقول: [ها أنا ذا أرسل إليكم إيليا النبي قبل مجيء يوم الرب اليوم العظيم والمخوف، فيردّ قلب الآباء على الأبناء وقلب الأبناء على آبائهم لئلا آتي وأضرب الأرض بلعن]([5]).

ولا إشكال في أن المراد بيوم الرب فيها هو يوم إقامة الملكوت، ولذلك وصفه بأنه يوم عظيم ومخوف.

ولا يمكن أن يراد به التمهيد للسيد المسيح (عليه السلام) كما يفترضه المسيحيون، لأن المفروض أن إيليا المقصود سيرد قلوب الأبناء على آبائهم وبالعكس، وإلا فسوف يضرب الله الأرض بلعن، بينما نجد أن السيد المسيح (عليه السلام) - وحسبما يفترض الإنجيليون - قد جاء ليفرق [الإنسان ضد أبيه، والأب ضد ابنه، والأم على البنت، والبنت على أمها، والحماة ضد كنّتها، والكنّة ضد حماتها]([6]).

نصوص ابن الإنسان:

إننا نجد في هذا المجال، حشدا من النصوص التي تتعرض لابن الإنسان ولزمانه، لا بدّ من ذكر بعضها مما يضيء على المسألة، وبيان ما إذا كان يصحّ انطباقها على السيد المسيح (عليه السلام) أم لا؟

وينبغي أولاً ملاحظة انه (عليه السلام) لم يصرح بأن المراد من ابن الإنسان الذي سيقيم حكومة الملكوت نفسه الشريفة, بل لم يشر إلى ذلك في أي مورد من الموارد، فقد كان يذكره بصيغة الغائب كلما تعرّض له، حتى في الموارد التي يبدو من سياقها للوهلة الأولى أنه هو المراد بالكلام فعلاً، وهذا يدل دلالة أكيدة على أن ابن الإنسان المقصود هو غيره كما تقدم ذكره.

وما دام الأمر كذلك، فان حمل ابن الإنسان عليه (عليه السلام) مخالف للنصوص الإنجيلية نفسها، ولا بد أن يكون تبرّعًا من المسيحيين، وهو تبرّع لا قرينة تساعده، ولا دليل يدل عليه، وبالتالي فلا يمكن الالتزام به، ولا المصير إليه.

ومهما يكن من أمر, فإن من النصوص الإنجيلية التي تتحدث عن حكومة آخر الزمان, وعن ابن الإنسان الذي سيقيمها, والتي سنعرضها هي التالية:

1- [فإن ابن الإنسان سوف يجيء في مجد أبيه مع ملائكته وحينئذ يجازي كل واحد حسب عمله, الحقّ أقول لكم إن من القيام هنا قومًا لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتيًا في ملكوته]([7]).

ومن الواضح أنها لا تقبل الانطباق على السيد المسيح (عليه السلام), لأن ابن الإنسان هذا سوف يجازي كل واحد حسب عمله, وأما السيد المسيح فلم يجازِ أحدًا, إذ هو لم يقم حدّ الرجم على المرأة الزانية عندما جيء بها لذلك([8]).

وجاء إليه رجل يشتكي على أخيه في قسمة ميراثهما, فردّه وقال له: [يا إنسان من أقامني عليكما قاضيًا أو مقسّمًا]([9]).

وحاول بعض اليهود أن يخطفوه وينصّبوه ملكًا عليهم، وعلم بذلك تركهم وانصرف إلى الجبل وحده([10]).

وغنيٌ عن البيان أن مهمّته ووظيفته كانت منحصرة بالوعظ والبشارة باقتراب ملكوت السماوات, كما حفلت به كافة فصول الأناجيل.

ومما لا إشكال فيه أنه ليس المراد بالمجازاة هذه حساب يوم الدينونة، بقرينة ما ورد في ذيلها [أن من القيام هنا قومًا لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتيًا في ملكوته].

كما أنه لا يصح إرادة مجازاته لهم بعد قيامته من الأموات، كما ربما يتوهم، لأن المفروض أن مهمته ووظيفته قد انتهت قبل حادثة الصلب، حين أعلن في نهاية خطبته على الجبل قائلا: [أنا مجّدتك على الأرض، العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته]([11]).

هذا بالإضافة إلى أنه لم يدّع أحد من المسيحيين أو من غيرهم أن السيد المسيح (عليه السلام) قد تصدّى لهذه المهمة بعد حادثة الصلب.

2- أنه لا بد أن يسبق مجيء ابن الإنسان الموعود كثير من الحروب والدمار والفتن، فإذا جاء رآه جميع الناس, [وحينئذ تظهر علامة ابن الإنسان في السماء. وحينئذ تنوح جميع قبائل الأرض ويبصرون ابن الإنسان آتيًا على سحاب السماء بقوّة ومجد كثير، فيرسل ملائكته ببوق عظيم الصوت فيجمعون مختاريه من الأربع الرياح من أقصاء السماوات إلى أقصائها]([12]).

وشيء من ذلك لم يحصل مع السيد المسيح (عليه السلام)، وكل ما حصل أنهم ذهبوا إلى القبر ولم يجدوه فيه، فادّعي أنه قام من الأموات، دون أن يتفق الانجيليون على نص معين يمكن الركون إليه حول من رآه ومن كلّمه حينئذ، وقد عالجنا هذه المسألة بالتفصيل في كتاب [صلب المسيح في الانجيل] فيمكن مراجعته هناك.

3- [الحق أقول لكم لا يمضي هذا الجيل حتى يكون هذا كلّه، السماء والأرض تزولان ولكن كلامي لا يزول، وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا ملائكة السماوات إلا أبي وحده، وكما كانت أيام نوح كذلك يكون أيضا مجيء ابن الإنسان، لأنه كما كانوا في الأيام التي قبل الطوفان يأكلون ويشربون ويتزوجون إلى اليوم الذي دخل فيه نوح الفلك، ولم يعلموا حتى جاء الطوفان وأخذ الجميع. كذلك يكون أيضًا مجيء ابن الإنسان]([13]).

1- وأضاف كاتب انجيل لوقا قول المسيح: [كذلك أيضا كما كان في أيام لوط كانوا يأكلون ويشربون ويشترون ويبيعون ويغرسون ويبنون، ولكن اليوم الذي خرج فيه لوط من سدوم أمطر نارًا وكبريتًا من السماء فأهلك الجميع، هكذا يكون في اليوم الذي يظهر فيه ابن الإنسان، في ذلك اليوم من كان على السطح وأمتعته في البيت فلا ينزل ليأخذها. والذي في الحقل كذلك لا يرجع إلى الوراء]([14]).

يتبع =

[1] - سفر دانيال: 8/15-17.

[2] - إنجيل متى: 24/3-4.

[3] - سفر دانيال: 7/13-14.

[4] - إنجيل متى: 17/9-13؛ وانجيل مرقس: 9/9-13.

[5] - سفر ملاخي: 4/5-6.

[6] - إنجيل متى: 10/34-35؛ انجيل لوقا: 12/49-53.

[7] - إنجيل متى: 16/27-28.

[8] - إنجيل يوحنا: 8/2-11.

[9] - إنجيل لوقا: 12-13.

[10] - إنجيل يوحنا: 6/15.

[11] - إنجيل يوحنا: 17/4.

[12] - إنجيل متى: 24/30-31؛ وإنجيل مرقس: 13/26-27؛ وانجيل لوقا: 21/27.

[13] - إنجيل متى: 24/34-39؛ وإنجيل لوقا: 17/24-32.

[14] - إنجيل لوقا: 17/28-31.

.

تتمة مقال = ابن الإنسان في الإنجيل

ودلالته صريحة على أنه في ذلك اليوم سيقع العذاب والبلاء على من أنكروا ابن الإنسان الموعود، وسينتشر النعيم والرخاء على أتباعه وأنصاره والمؤمنين به.

وأما يوم السيد المسيح (عليه السلام) فلم يتحدّث التاريخ عن وقوع شيء من ذلك معه كما هو معلوم. هذا مع أنه كان يعلم ساعة ارتفاعه ورحيله عن الناس, كما تدل عليه الأناجيل الأربعة, فهو يخاطب تلاميذه قائلا: [هوذا الساعة قد اقتربت وابن الإنسان يسلم إلى الخطاة, قوموا ننطلق. هوذا الذي يسلمني قد اقترب]([1]).

وقال لاثنين من تلاميذه, وهما اندراوس وفيلبس: [قد أتت الساعة ليتمجد ابن الإنسان]([2]).

وكذلك أنهى خطبته على الجبل, متوجهًا إلى السماء, وقال: [أيها الأب قد أتت الساعة]([3]).

ولازم كل ذلك أن يكون عارفًا بوقت مجيئه في الملكوت, لو كان هو المراد به, ذلك أنه كان قد أخبرهم بأنه سيقوم بعد ثلاثة أيام, كما كان يونان النبي في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال بحسب الأناجيل.

بينما مجيء ابن الإنسان الموعود, فلا أحد يعلم به حتى السيد المسيح (عليه السلام) والملائكة القدّيسون, حسب نص النبوءة, ولا يعلمها إلا الله تعالى.

هذا كله مع أن يوم صلب المسيح (عليه السلام)!! كان شديدا على المسيح نفسه, وليس على خصومه والذين رفضوه, ولذلك أمضى الليل كله ساهرًا ومتوسلاً إلى الله تعالى ليُجيز عنه كأس الموت]([4]).

ولهذا كان بحاجة إلى من يشدّ أزره ويقوّيه ويعينه في محنته, فقد [ظهر له ملاك من السماء يقوّيه, وإذ كان في جهادٍ يصلي بأشد لجاجة وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض]([5]).

وأين حاله من ذلك الذي سيأتي في مجد وملكوت وقوة كثيرة, فيكون يومًا شديدًا على الكافرين, لا على المؤمنين الذين ينعمون بعدله ورحمته, حتى قال السيد المسيح (عليه السلام) لتلاميذه فيه: [ستأتي أيام تشتهون أن تروا يومًا واحدًا من أيام ابن الإنسان ولا ترون]([6]).

وهذا يشكّل قرينة إضافية على عدم كون السيد المسيح (عليه السلام) هو المقصود بابن الإنسان الموعود, لأن المفروض, وبحسب الأناجيل, أنهم سيكونون معه في قضاء يوم الدينونة, حيث يقول لهم: [وأنا أجعل لكم كما جعل لي أبي ملكوتًا, لتأكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي وتجلسوا على كراسي تدينون أسباط إسرائيل الإثني عشر]([7]).

ولا يخفى أن الالتزام بإرادة السيد المسيح (عليه السلام) من ابن الإنسان الموعود, ينافي كونهم معه في قضاء يوم الدينونة, إذ كيف يصح أن يكونوا معه, وهم يتمنون أن يروا يومًا من أيامه دون أن يتسنى لهم ذلك, اللهم إلا إذا التزمنا بعدم صحة أحد الكلامين, وهو ما لا يرتضيه المسيحيون قطعًا. فلا مخرج للمسيحيين إذن إلا بالتزام إرادة غيره من ابن الإنسان, إن افترضوا صحّة النصين معًا, وصدورهما عنه (عليه السلام) فعلاً.

4- [ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم وخسر نفسه, أو ماذا يعطي الإنسان فداء عن نفسه, لأن من استحى بي وبكلامي في هذا الجيل الفاسق الخاطئ فإن ابن الإنسان يستحي به متى جاء بمجد أبيه مع الملائكة القديسين] ([8]).

5- [فسأله رئيس الكهنة أيضا وقال له أأنت المسيح ابن المبارك, فقال له يسوع أنا هو. وسوف تبصرون ابن الإنسان جالسًا عن يمين القوّة وآتيًا في سحاب السماء]([9]).

وقد اتفق الإنجيليون الثلاثة على ذكر هذه الحادثة, وبصور متقاربة, يجمعها أن الحديث كان معه مباشرة, وأنه كان يتحدث عن نفسه بصيغة المتكلم, ثم انتقل مباشرة ليتحدث عن ابن الإنسان الآتي بصيغة الغائب, ومقتضى الحال أنه لو كان يريد نفسه أن يكمل بصيغة المتكلم أيضًا، رفعًا للالتباس وسوء الفهم, خصوصًا وأنه لم يذكر في أي مورد من الموارد أنه هو المقصود صراحة كما سبقت الإشارة إليه.

هذا بالإضافة إلى ما تقدّم من أنه لم يحصل من الناحية الواقعية أن رأوا شيئًا يصدّق هذه النبوءة في شخصه الكريم, مما يدل دلالة أكيدة على أنه كان يريد ابن إنسان آخر, وهو الموعود بإقامة ملكوت آخر الزمان.

ويؤكّد هذه الحقيقة أن اليهود كانوا يعلمون علم اليقين أن مقيم ملكوت السماوات سيكون في آخر أيام الدنيا, فإنه حينما كان يتحدث عن ارتفاعه عن هذا العالم [فأجابه الجمع نحن سمعنا من الناموس أن المسيح يبقى إلى الأبد. فكيف تقول أنت إنه ينبغي أن يرتفع ابن الإنسان. من هو هذا ابن الإنسان]([10]).

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن جوابهم المذكور غير متناسق مع سياق الكلام الوارد على لسانه (عليه السلام), ذلك أنه لم يتعرض في هذه الفقرة لعنوان ابن الإنسان, بل كان يتحدث عن نفسه بصيغة المتكلم [وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب الجميع إلي], وأما جوابهم فكان عن شخص آخر, لا بد أن يبقى معهم إلى الأبد, مما يعني أن كاتب الإنجيل قد تصرّف في النص, أو أن النسّاخ قد حذفوا منه شيئًا, لينسجم مع اعتقادهم ورؤيتهم, فاختلّ سياق الكلام بهذا التصرف, خصوصًا وأن الجمع الذين كان يحاورهم كانوا يظنّون أنه هو المسيح الموعود, والمسيح هنا بمعنى الملك, فأراد السيد المسيح أن يصحّح لهم هذا الاعتقاد, ويردّهم إلى الصواب, ولذلك كان استهجانهم واستغرابهم من كلامه معهم, فسألوا [من هو هذا ابن الإنسان].

وهكذا يظهر أن إرادة المسيح (عليه السلام) من ابن الإنسان الموعود بإقامة الملكوت في الإنجيل تؤدّي إلى اختلال كلام الإنجيل كله, مما يستوجب طرحه, أو إعمال التكلّف الشديد في محاولة رفع التهافت فيه دون جدوى. ولا يستقيم سياق الأناجيل في هذه المسألة إلا إذا حملنا عنوان ابن الإنسان على شخص آخر غيره في آخر الزمان, وهو مهدي آل محمد الحجة بن الحسن المنتظر المهدي عجل الله فرجه الشريف.

انتهى المقال

---

[1] - إنجيل متى: 26/45-46؛ ومرقس: 14/41-42.

[2] - إنجيل يوحنا: 12/23.

[3] - إنجيل يوحنا: 17/1.

[4] - إنجيل متى:26/37-44؛ ومرقس:14/33-39.

[5] - إنجيل لوقا: 22/42-44.

[6] - إنجيل لوقا:17/22.

[7] - إنجيل لوقا:22/29-30؛ ومتى: 19/28.

[8] - إنجيل مرقس: 8/36-38؛ ولوقا: 9/25-26.

[9] - إنجيل مرقس: 14/61-62؛ متى: 26/63-64؛ ولوقا: 22/67-69.

[10] - إنجيل يوحنا:12/34.

الهوامش

* باحث إسلامي ومدرّس في الحوزة العلمية.

إمكانية رؤية الهلال تابعة للتقدير

م. محمد علي الصائغ

إمكانية رؤية الهلال تابعة للتقدير وليست دقيّة

المهندس محمد علي الصائغ*

تمهيد:

إن الحسابات الفلكية المتعلقة بولادة الهلال متفق عليها ولا نزاع فيها، وأما إمكانية الرؤية فلا ضابطة لها، لأنها تابعة لتقدير جملة من المتغيّرات والظروف المحيطة بالهلال بعد ولادته، والتي تكون حدًّا فاصلاً بين إمكانية الرؤية وعدمها، وهذه غير متفق عليها، بل هي محل خلاف.

فالرؤية البصرية للهلال **لا تتحقق** -مع انتفاء الموانع- إلا بتوفر شروط أربعة هي:

1- ولادة الهلال المعتبرة قبل غروب الشمس.

2- والمكث بعد غروب الشمس.

3- وخروجه من تحت شعاع الشمس.

4- وظهور النور فيه.

إلا أن المتغيرات التي **لها دخالة** في إمكانية الرؤية كثيرة:

فمنها: البعد الزاوي (بُعد سُوى)؛ المكث بعد غروب الشمس؛ ارتفاع الهلال؛ عمر الهلال؛ مكان القمر في المدار حول الأرض (الأوج والحضيض)؛ ولعرض القمر أثر مهم في الرؤية؛ كما أن لظروف الجوّ وحدّة بصر الراصد وخبرته أثرها الكبير في إمكانية الرؤية.

ولذلك قد يُرى الهلال في ظروف ولا يُرى في ظروف أخرى، ومن هنا رأينا الحاجة إلى إلقاء الضوء على العناوين التالية:

البعد الزاوي المعتبر لإمكانية الرؤية

لا يزال البعد الزاوي المعتبر لإمكانية الرؤية محل خلاف:

فعند الفلكيين القدامى: أن الهلال إذا بعد عن الشمس بمقدار اثتني عشرة درجة أو أقل بقليل أو أكثر بقليل، خرج عن تحت الشعاع وصار قابلاً للرؤية.

والمعروف عند المحققين: أن أقل مقدار له هو عشر درجات.

وأما في علم الفلك الحديث: فقد أفادت البحوث المقدَّمة إلى مؤتمرات الأهلّة التي عُقدت في استانبول والكويت أنه سبع درجات، شريطة أن يكون ارتفاع الهلال لحظة غروب الشمس خمس درجات فأكثر كي يكون قابلاً للرؤية، وقد ارتأى بعض علماء الدين زيادة البعد الزاوي إلى ثمان درجات احتياطًا، ولكنه احتياط غير مبرر علميًا.

إلا أن هذه الحدود (7درجات، 10درجات، 12درجة) لا تزال محلّ خلاف ومثارًا للجدل، لأنها محض حسابات لم تخضع للتجربة، ولذا لم تطبّق في العالم الإسلامي إلى الآن.

المكث بعد غروب الشمس

وهو الفترة الزمانية بين وقت غروب القمر وغروب الشمس، وفي الليلة الأولى لرؤية الهلال يكون مكثه أقل من ساعة، لذا يقاس مكثه بالدقائق الزمنية. وكلما كان مكث الهلال فوق الأفق أكثر، كلما كانت الرؤية أسهل، وتصعب الرؤية كلما قلّ زمن مكث الهلال بعد غروب الشمس، حتى تصبح ممتنعة([i])عندما لا يكون هناك مكث للهلال، أي عندما يغرب القمر قبل غروب الشمس، ويشار إلى الحالة الأخيرة في جداول مكث الأهلّة بالعلامة السالبة (-).

الإجهاض:

لا بد للهلال من مكث بعد غروب الشمس مسبوق باقتران لكي تتحقق الرؤية الشرعية، ولكن في بعض الأحيان يكون الهلال غير مولود ومع ذلك فله مكث يسير بعد غروب الشمس. هذا المكث لا يعتد به لأنه مكث قبل الاقتران، يسمّي الدكتور العجيري - الفلكي الكويتي المعروف - هذه الظاهرة بـالإجهاض، ولا اعتبار لهذا المكث الضئيل والذي يحدث قبيل الاقتران وبواقع مرّة أو مرّتين في السنة في الموقع الواحد، وهو ليس الهلال الذي يثبت به الشهر الجديد، والذي يميّزه عن هلال الشهر الجديد هو أن قَرْنَيه متجهان إلى الأسفل وتحدّبه إلى الأعلى، أما الهلال الجديد فتحدّبه يكون إلى اليمين أو الأسفل وبالتالي فقرناه إلى الأعلى أو لليسار. والسبب في هذه الظاهرة هو العرض العالي للقمر الذي يكون متوافقا مع جهة الراصد (عرض شمالي وموقع شمالي أو عرض جنوبي وموقع جنوبي).

إذن الإجهاض هو: المكث الضئيل الذي يحدث للهلال بعد غروب الشمس في بعض الأحيان قبيل الاقتران. وينبغي الإشارة إلى أن هذا الهلال لا يمكن رؤيته بالعين المجردة ولكن تحدده الحسابات.

ارتفاع الهلال

لا يمكن رؤية الهلال الوليد ما لم تزد زاوية ارتفاعه عن الأفق الأقرب عن خمس درجات، إلا أن هذا أمر لم يخضع للتجربة والمسألة ما زالت محل عدم اتفاق.

عمر الهلال

هو الزمن المنقضي منذ وقت الاقتران أو وقت الهلال الجديد New moon. (وقد تعرضنا له مفصلاً في مقالة سابقة نشرت في رسالة النجف السنة الأولى العدد الثالث).

الأوج والحضيض للقمر

وهما وصفان (للأرض) بالإضافة لبعدها أو قربها عن (الشمس) في مدارها السنوي حول الشمس. ويوصف بهما (القمر) بالإضافة لبعده أو قربه عن (الأرض) في مداره الشهري، والمهم هنا هو بيان أوج القمر وحضيضه، لعلاقته الوثيقة بما نحن فيه، ونتعرض لوضع الأرض قربًا وبعدًا بالنسبة للشمس إتمامًا للفائدة، فنقول:

قد تلاحظ المسافة بين القمر والأرض، فيقال:

القمر في الأوج (الذنب): أبعد مسافة بين القمر في مداره الشهري وبين الأرض.

القمر في الحضيض (الرأس): وهو أقرب مسافة بين القمر في مداره الشهري وبين الأرض.

وقد تلاحظ المسافة بين الأرض والشمس، فيقال:

الأرض في الأوج: أبعد مسافة (بين) الأرض (وبين) الشمس في مدارها السنوي حول الشمس.

الأرض في الحضيض: أقرب مسافة (بين) الأرض (وبين) الشمس في مدارها السنوي حول الشمس.

وتكون الأرض خلال السنة مرة واحدة في الأوج ومرة واحدة في الحضيض، تكون الأرض في الأوج يوم 2-6 من شهر يوليو/ تموز من كل عام. وتكون في الحضيض يوم 2-4 من شهر يناير/ كانون الثاني من كل عام.

أما القمر فيكون خلال الشهر الواحد مرة واحدة في الأوج ومرة واحدة في الحضيض، ويتكرر ذلك 13 مرة تقريبًا خلال السنة.

وإذا كان القمر في الأوج تكون سرعته بطيئة. أما إذا كان في الحضيض فتكون سرعته عالية، مما يساعده في الإسراع في زيادة البعد الزاوي، وبالتالي زيادة النور فيه، ولذلك فإن وجود القمر في الحضيض أو قريبًا منه يعتبر من العوامل المساعدة على رؤية الهلال.

ثم إن المهم مما قدمناه هو بيان أوج القمر وحضيضه، لعلاقته الوثيقة بما نحن فيه.

العُقدة الصاعدة والعُقدة الهابطة

إن مستوى مدار القمر يميل عن مستوى مدار الأرض بزاوية تتغير من 4:57 إلى 5:20 درجة بسبب تأثير جاذبية الشمس والأرض، أي معدل هذه الزاوية 5:09 درجة، فلهذا يتقاطع المداران في نقطتين تُدعيان بالعقدة الصاعدة والعقدة النازلة استنادًا إلى حركة القمر شمالاً، أو جنوبا نسبة إلى مدار الأرض، ونتيجة لذلك فإن ميل القمر عن خط الاستواء الأرضي يتغير أيضًا ومقدار هذا التغير يتراوح بين 18:27 إلى 28:27 درجة، والسبب في ذلك هو أن القمر يميل عن مدار الأرض بحوالى 5:09 درجة وأن مدار الأرض يميل عن خط الاستواء بمقدار 23:27، فلهذا يكون تغيّر ميل القمر (من 23:27 + 5:09 =28:36) درجة كحدٍّ أعلى و(23:27 – 5:09 = 18:18 درجة) كحدٍّ أدنى.

السبب في رؤية الهلال مرتفعًا تارة عند عبوره الزوال ومنخفضًا تارة أخرى

يعود السبب في رؤية الهلال مرتفعًا تارة عند عبوره الزوال ومنخفضًا تارة أخرى إلى الميل. فيكون مرتفعًا إذا كان الميل شماليا بحده الأعلى والموقع شماليًا (كما هو الحال في بلدان نصف الكرة الشمالي) ويكون منخفضًا إذا كان الميل جنوبيًا وفي حده الأدنى والبلد شماليًا. يكون الهلال في الكويت عاليًا جدًا وقريبًا من قمة الرأس (السمت)، وهذا في حدّه الأعلى، أما في لبنان فيكون أقل علوًا من الكويت دائمًا.

وضع القمر في المحاق (عرض القمر والخسوف والكسوف)

يميل مدار القمر على دائرة البروج بمقدار 5 درجات و48 دقيقة و43 ثانية (5،1467 درجة بالمعدل)، بسبب تأثير جاذبية الشمس والأرض، وهو ما يصطلح عليه بعرض القمر.

وتسمّى نقاط تقاطع مدار القمر مع دائرة البروج بالعقدتين الصاعدة والنازلة، فإذا كان القمر في إحدى العقدتين أو قريبًا منها (عند الاقتران) حدث كسوف للشمس، وإذا كان القمر (بدراً) في إحدى العقدتين أو قريباً منها حدث خسوف القمر.

وعليه فإن القمر في حالة المحاق (أي اجتماع الأرض والقمر) يكون في أحد وضعين:

أحدهما: اجتماع الأرض والقمر في درجة واحدة من برج واحد وعلى عرض واحد، وفي هذه الحالة ينتج كسوف محقّق.

الثاني: اجتماع الأرض والقمر في درجة واحدة من برج واحد مع اختلاف العرض شمالاً أو جنوبًا، أي يحصل الاقتران في غير العقدتين أو ليس قريبًا منهما.

وسبب كونه في أحد هذين الوضعين: أن القمر تختلف نسبة حركته إلى منطقة البروج فتارة يميل إلى الجنوب (هبوطًا) وأخرى يميل إلى الشمال (ارتفاعًا).

ولولا هذا الميل عن دائرة البروج لحدث كسوف عند أول كل شهر قمري (أي عند الاقتران)، وخسوف في وسطه (أي عند الاستقبال).

وفي النهار الذي يحدث فيه الكسوف لا تُقبل الشهادة بالرؤية إذا وقع الكسوف قرب الغروب، لأن الكسوف هو اقتران مرئي بين الشمس والقمر، فرؤيته تعتمد وتتوقف على خروج القمر عن تحت الشعاع وعوامل أخرى.

أثر الغلاف الجوي على إمكانية الرؤية

يؤثر الغلاف الجوي للأرض على الضوء الآتي من القمر فيمتصّ جزءًا منه، حيث تقلّ إضاءة الهلال بسبب الغلاف الجوي، وخاصّة في طبقة التروبوسفير (الطبقة المناخية) التي يبلغ متوسط ارتفاعها 11 كلم فوق سطح البحر، وهي الطبقة التي تحدث فيها الظواهر الجويّة كالضباب والغيوم والأمطار والدخان والملوّثات.

وعند آخر درجة أو درجتين من غروب الهلال (وهي مسافة قريبة من الأفق)، فإن سمك هذه الطبقة أفقيًا، قد يصل إلى 400 كلم بدلاً من 11 كلم.

وفي أحسن الظروف الجوية أي في ظروف وجود ضباب خفيف، فإن 1% من ضوء الهلال سيصلنا من خلال هذا العمود الأفقي الهائل من هذه الطبقة الهوائية، أي جزء من عشرة آلاف جزء من هذا الضوء. أما إذا كان الضباب كثيفًا فإنه يحجب الشمس فضلاً عن الهلال، فلا يمكن رؤيتهما.

كما أن الغلاف الجوي يؤدّي إلى انكسار أشعة الضوء، فتبدو الشمس والقمر والأجرام الأخرى أكبر حجمًا كلما اقتربت من الأفق، وقد تكون قيمة الانكسار الأفقي كبيرة لدرجة أن الشمس تتواجد في الأفق مرتفعة عن مكانها الحقيقي بأكثر من قطرها.

كما أن الحرارة والضغط الجوي ورطوبة الهواء تؤثر على درجة الانكسار.

وللعلم فإنّ هناك بعض الظواهر البصرية الأخرى تتسبّب عن تأثيرات الغلاف الجوي، منها على سبيل المثال: هالتا الشمس والقمر، وشفق الفجر والعشاء، واحمرار السماء عند الشروق والغروب.

إضاءة القمر:

يبلغ الضوء المنبعث من القمر جزءًا من 456000 من ضوء الشمس(حوالى جزء من نصف مليون جزء من إضاءة الشمس). إذ يُبدي القمر أقصى لمعانٍ عندما يكون بدرًا وهي الإضاءة الكلية للقمر وهو ما يعادل إضاءة شمعة على بعد مترين.

ونور القمر عندما يكون على أشدّه في حالة البدر لا يكون شيئًا مذكورًا أمام إضاءة الشمس، لدرجة أن وجه السماء كله - وهو يوازي مائة ألف من المساحة الظاهرية لقرص البدر - لو كان مضيئًا بنفس إضاءة القمر عندما يكون بدرًا، لما زاد عن خُمس ما تضفيه الشمس من ضوء على سطح الأرض.

يتبع =

---

[i] - الرؤية الممتنعة اصطلاح استعملناه هنا في قبال الرؤية المستحيلة، والفرق بينهما أن الرؤية الممتنعة تعني أن الهلال يغرب قبل غروب الشمس مع انه مولود قبلها، أما المستحيلة فتعني أن الهلال مولود بعد غروب الشمس.

.

تتمة مقال = إمكانية رؤية الهلال

تأثير إضاءة الأرض على القمر:

عندما يكون القمر هلالاً فإنه يمكن تمييز الجزء غير المضيء من سطحه ظاهرًا بخفوت، ومرجع ذلك إلى ظاهرة يسمّيها الفلكيون (الإضاءة من الأرض)، وذلك أن سطح القمر المضيء يظهر لنا لامعًا لسقوط أشعة الشمس مباشرة عليه وانعكاسها إلى الناظر إليه من الأرض.

إلا أن هناك مصدرًا آخر غير مباشرٍ لسقوط أشعة الشمس على سطح القمر، وذلك بعد سقوطها على الأرض وانعكاسها إلى سطح القمر (الضوء المنعكس من البحار والمساحات المغطاة بالثلوج البيضاء والغيوم واليابسة)، ثم انعكاسها من سطح القمر ثانية إلى عين الراصد من أهـل الأرض، ونظرًا لهذه السلسلة من الانعكاسات المتتالية تبدو (الإضاءة من الأرض) خافتة ولكن بقدر يسمح بتمييز بقية سطح القمر غير المضيء، هذه الإضاءة تسمى الإضاءة الرمادية للقمر.

إن القمر يُرى جليًا في الليالي الأولى (فيكون هلالاً مع إضاءة خافتة لباقي القرص) وذلك في حالات صفاء الجو بحيث لا يؤثّر سطوع الهلال على رؤية باقي إضاءة قرص القمر الرمادية، و بعد مضي هذه الليالي فان زيادة نور القمر يحجب رؤية الإضاءة الرمادية لقرص القمر.

الجزء المضيء من جرم القمر:

كل كوكب إذا أشرق على كوكب آخر أصغر منه يكون نصف الطرف المستشرق من الكوكب الأصغر المواجه أكبر من الطرف الأخر المظلم غير المواجه للكوكب المشرق.

وعلى هذا فإن الأرض بمقابلتها للشمس يكون الجزء المضيء منها أكثر من نصفها، والقمر أيضًا يكون الجزء المضيء منه أكبر من نصفه.

إن الجزء المقابل للشمس من القمر يكون مضيئًا ويسمى نهارًا قمريًا.

قوس النور (سمك الهلال):

هو القدر المضيء من القمر أي سمك الهلال أو الجزء المرئي من الضوء على سطح القمر.

ويبدأ عادة الجزء المرئي على شكل هلال دقيق ثم يكبر حتى يصير بدرًا ثم يصغر حتى يصير هلالاً ثم يختفي النور بالكامل بالنسبة لأهل الأرض فيقال إن القمر في المحاق، وفي هذه الحالة يكون قوس النور صِفرًا.

دائرة النور:

هي كلُّ الجزءِ المضيء من القمر، ونحن نرى من القمر أكثر من نصفه (حوالى 59 % من المساحة السطحية من القمر على ما تدل عليه الحسابات)، وذلك نتيجةً لكون القمر جرمًا صغيرًا بالنسبة للشمس، لذا يكون الجزء المضاء أكثر من نصفه، إذن فما نشاهده من على سطح الأرض هو أكثر من نصف المساحة السطحية من القمر، بمعنى أننا نرى جزءًا من النصف الآخر من القمر.

الهلال المطوق:

يلاحظ عندما يكون الهلال دقيقًا في أوائل الشهر القمري أن هناك خيطًا رفيعًا من الضوء يحيط بالقمر كأنه حزام له.

والسبب في ذلك أن الجزء المُضاء من القمر أكبر من نصفه بهذا القدر الضئيل الذي يُرى كطوق ضئيل النور، وذلك نتيجة لكون القمر جرمًا صغيرًا بالنسبة للشمس ولكون الجزء المُضاء أكثر من نصفه كما تقدم، ويختفي هذا الطوق كلما زاد سمك الهلال بسبب زيادة النور.

وعدم رؤية الطوق في الليلة الأولى يعود إلى الارتفاع القليل فوق الأفق.

أما في الليالي التالية فإن الهلال يكون أعلى فيمكن رؤية الطوق إذا كان الجوّ صحوًا.

إذن فرؤية الطوق دليل على زيادة البعد الزاوي وبالتالي قد يدل على أن عمر الهلال قد تجاوز الليلة فلكيًا.

وزيادة في الفائدة فإنه عند حدوث الكسوف الكلي وعندما يكون القمر في الحضيض فإنه بالإمكان رؤية طوق القمر، ويمكن رؤية الفوهات والجبال والوديان وذلك بالمناظير والتلسكوبات مع الأخذ بالاحتياطات اللازمة لسلامة العين.

نور الهلال أول ليلة:

إن نور الهلال يقاس منسوبًا إلى جرم البدر الكامل، ولضآلته في الليالي الأولى يكون التقدير بنسبة محسوبة بالألف، والتي تكون أقل من عشرة بالألف غالبًا.

ولتصور ضآلة هذا المقدار نفترض أن إضاءة القمر كانت ثمانية بالألف من جرم البدر الكامل، وعلينا أن نتصور قرصًا دائريًا عليه ألف خيط منها 992 خيطًا أسود، وثمانية خيوط بيضاء ويبعد عنا 400 ألف كيلومتر وعلينا أن نرصد هذه الحزمة التي لا تتجاوز الثمانية بالألف من هذا البعد الشاسع، هذا هو معنى أن نسبة الضوء ثمانية بالألف من جرم البدر الكامل، والتي علينا رصدها في الليلة الأولى.

لماذا يرى البعض الهلال ولا يراه الآخرون:

هناك قلة من الناس يتمتعون بتركيب بيولوجي مميّز في العين، كأن تكون عندهم خلايا تفرّق بين الألوان المتقاربة بدرجة أكثر بكثير عن غيرهم، ويبلغ عدد هذه الخلايا عشرة ملايين خلية تقريبًا، مما يمكّنهم من رؤية الهلال إذا كان موجودًا في السماء، وهؤلاء يرون الهلال على الحقيقة.

السبب في التعارض بين الشهادة بالرؤية وإخبار الحاسب بعدم وجود قمر أصلا في الأفق لحظة الرصد

قد لا تكون الرؤية أحيانا مطابقة للحساب، وذلك بلحاظ ما يلي:

أولا: أن بعض من يشهد بالهلال قد لا يراه ويشتبه عليه، أو يرى ما يظنّه هلالاً وليس بهلال، فإن بعض الكواكب كالزهرة مثلاً ترى عند المغيب في بعض الأوقات على شكل هلال تمامًا فيظنّها الراصد - الذي لا علم له بتشكل الزهرة ووقت غروبها - هلالاً، مع أن جهة التقوّس تخالف جهة تقوّس القمر (لا ترى هذه التفاصيل إلا بالأجهزة).

ثانيًا: أن بعض من يشهد، قد تُريه عينُه ما لم يرَه حقيقة في الخارج، وهذا ثابت في علم البصريات فإن الإنسان إذا حدّق مدة طويلة إلى شيء دقيق وبعيد فإنه يتوهم وجوده، وذلك بمساعدة تداعي الصور من مركز تخزينها في دماغ الإنسان. ويرى آخرون خيالاً لهلالٍ، وتسمى هذه الظاهر"تداعي الأبصار".

ثالثًا: التشويشات المستجدة على رؤية الأهلة في هذا العصر مثل إنكدار الآفاق بسبب حركة المواصلات وأبخرة المصانع وتأثير دخان الملاحة الجوية التي لا تخلو الأجواء منها، فدخان الطائرات يتشكل قِطَعًا صغيرة متفرّقة فتعكس ضوء الشمس، وعلى قدر ارتفاع تلك العوادم تستمرّ الشمس مشرقة عليها، فتُنير كما يُنير الهلال فتُرى على شكل أهلة، وهذا مشاهد ومحسوس، فعندما تمرّ الطائرة فإن عمود الدخان المنطلق منها يُشاهد خطًا أبيض يحسبه الرائي سحابًا ممتدًا ثم تتقطع بعد ذلك، فإذا غربت الشمس يظل نورها واقعًا عليها لفترة بسيطة فترى كالأهلة.

رابعًا: نسبة الرطوبة الشديدة، فإنها من جملة المشوشات للنظر، فإن الرطوبة الشديدة تعكس حالة شبه تلألؤ يحسبه الرائي هلالاً وكذلك الغيوم والفتحات المتشكلة بينها..

ومما يدل على هذا أن الهلال المدّعى رؤيته في هذا الحال لا يُرى إلا في بقعة واحدة، دون بقاع العالم الإسلامي الأخرى وخصوصًا المناطق الواقعة غرب منطقة ادعاء الرؤية. مع أن الهلال إذا رُؤي في بقعةٍ ما، فإنه يجب أن يرى في البقاع الواقعة غرب تلك البقعة بوضوح أكثر.

والوقائع أشارت أكثر من مرة إلى مثل هذا الاشتباه، حيث تَدَّعى الرؤية في البلدان الشرقية فتصوم أو تفطر، وفي اليوم التالي للرؤية إما أن لا يشاهد الهلال أصلاً أو يشاهد بصعوبة، فلو كان الهلال مرئيًا على الحقيقة في الليلة السابقة لكان أشد وضوحًا في الليلة التالية.

فهذه المستجدات العصرية وأمثالها قد تركت أثرًا واضحًا في التشويش على رؤية الأهلة، فيجب الاحتياط من هذه المؤثرات تحقيقًا للرؤية الصحيحة وتخلصًا من بلوى الرؤيا الوهمية.

انتهى المقال

الهوامش

* باحث في الهيئة والمواقيت والأهلة.

قبة سامراء

الشيخ محمد جواد الفقيه

قبّة سامرّاء([1])

الشيخ محمد جواد الفقيه *

لهفي على قبــرٍ بسامـــرّاء ... عَبَثَتْ بقُبَّتِهِ يَدُ الأعداءِ
كيفَ استطالَ البَغْيُ في جَنَبَاتِها ... حَنقًا يُمَزِّقُها بدونِ حَيَاءِ
قُبَبٌ تَغَارُ الشَّمسُ من أوصَافِها ... فتزورُها هَوْنًا على استحياءِ
وتعــودُ ثانيةً تَلُـــمُّ نِثَارَها ... إن أُحْصِرَتْ بالكَسْفِ والإعْيَاءِ
قُبَبٌ تعالى الله أعلى كَعْبَها ... فَتَطَاوَلَت تَسْمُو على الجَوْزَاءِ
ما قِيْمَةُ الذَّهبِ المُرَصَّعِ إن غَلا ... بالمَاسِ لولا مِعصَمُ الحَسْناءِ
ما قيمةُ الذَّهبِ المُسَال بِجَانِبِ ... الكُرْسِيِّ لولا هَيْبَةُ الأُمَرَاءِ
يا يَوْمَ سَامُرَّاء خَفِّضْ إنَّنَا ... شَعْبٌ تَأَبَّى عِيْشَةَ الجُبَنَاءِ
يا يومَ سامُرَّاءَ إنَّــا أُمَّـــةٌ ... تُنْمَى لِحَيْدَرَ سَيِّدِ الحُكَمَاءِ
هيهاتَ منَّا الذُّلُّ، بَاتَ شِعارُنا ... أَبَداً وتلك سَجِيَّةُ الشُّرَفَاءِ
لكنني أبكي لآلِ المصطفى ... مِن حُرقةٍ قد مزَّقَت أحشائي
لم يَشْتَفِ أعداؤهم مِن قَتْلِهم ... بلْ أَوْغَلُوا لِقُبُورِهم بِعِدَاءِ
هَدَمُوا قُبُورًا في البقيعِ وصَوَّبُوا ... نحوَ العِراقِ لأرضِ سَامُرَّاءِ
قبــرٌ تضمَّنَ للنبيِّ مُحمدٍ ... قَمَرَيْنِ شَعًّا بالسَّنَا الوَضَّاءِ
نَجْلُ الجَوادِ عليٌّ الهادي الذي ... ســـادَ الأَنَامَ بِخيرةِ الآبـــاءِ
والعسكريُّ أبــو الإمامِ القائـمِ ... المهديِّ سيـــــــدِ هذه البَطْحَاءِ
قد ظنَّ أَحْفَادُ القُرُود([2]) بأنَّهم ... نالوا النبيَّ وذاكَ مَحْضُ هُرَاءِ
أَسْيَادُهُم جَهَدوا ولمَّا أَفلسوا ... عَوَّوا عِواءَ الذِّئبِ في الصَحراءِ
يا صاحِ دَعْ عنكَ المُلام وخَلِّنِي ... لمُصَابِهم أبكي بِفَيْضِ دِمَاءِ
عَرِّجْ على ذِكْرِ الحُسينِ وآلِهِ ... في كربلاءَ وصَحْبِه النُّجَبَاءِ
وأَفِضْ دموعَ العَينِ واصْرخ نادِبًا ... لكَ يا رسولَ الله كلُّ عزائي
لم يحفظوا قُرْبَاكَ بل جَارُوا على ... سِبْطَيْكَ بَعْدَ البَضْعَةِ الزَّهراءِ
ومصائبُ الدنيا تَهُونُ وتَنْجَلِي ... إلا مُصِيبَةُ سيِّدِ الشُّهداءِ
تركُوه مُلْقىً في العَراءِ ثَلاثَةً ... ظامي الفؤادِ مُمَزَّقِ الأَعْضَاءِ

* * *

[1] - هذه الأبيات نظمت بمناسبة تعدّي الأيدي الآثمة على مقام العسكريَّين عليهما السلام في سامراء.

[2] - إشارة إلى الرسوم المسيئة إلى النبي (صلى الله عليه وآله).

الهوامش

* مستشار ثقافي في رئاسة المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى

رسالة النجف — العدد الخامس

جامعة النجف الأشرف للعلوم الدينية · http://127.0.0.1:8000

جميع الحقوق محفوظة